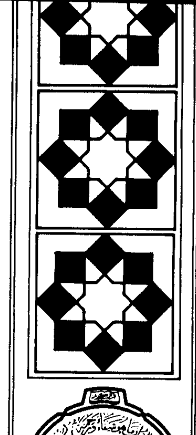
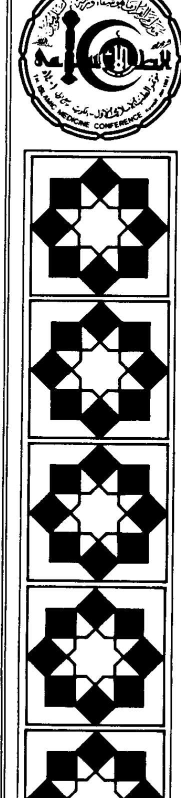
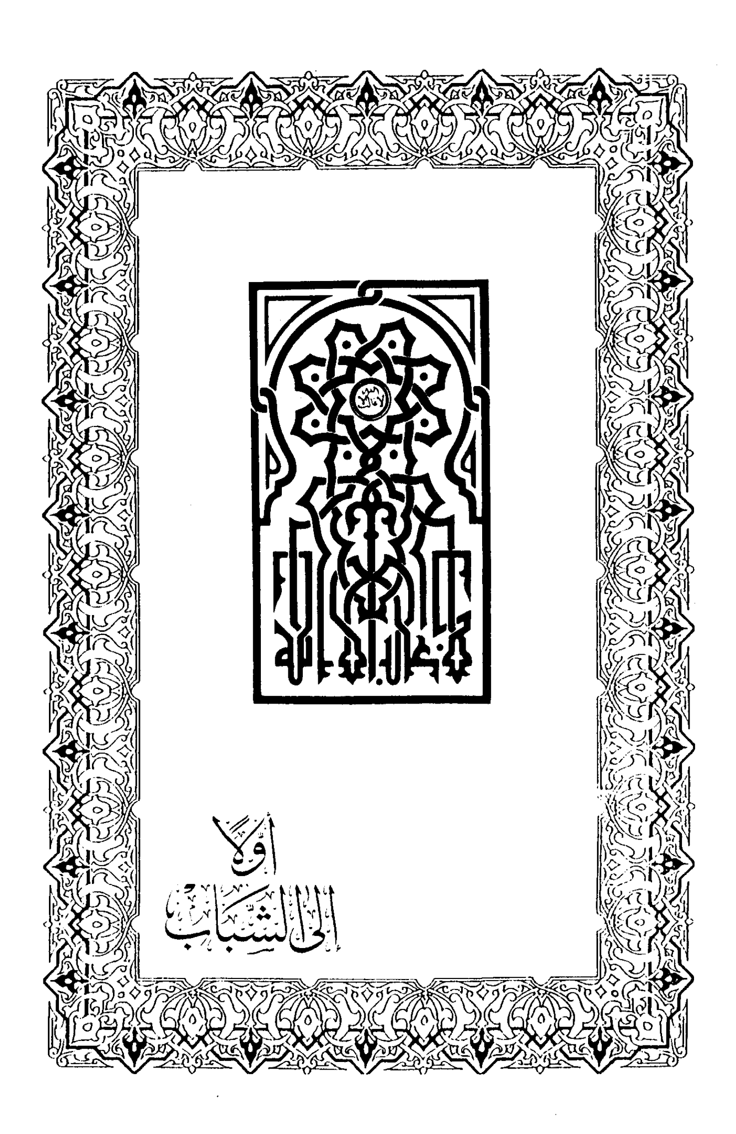


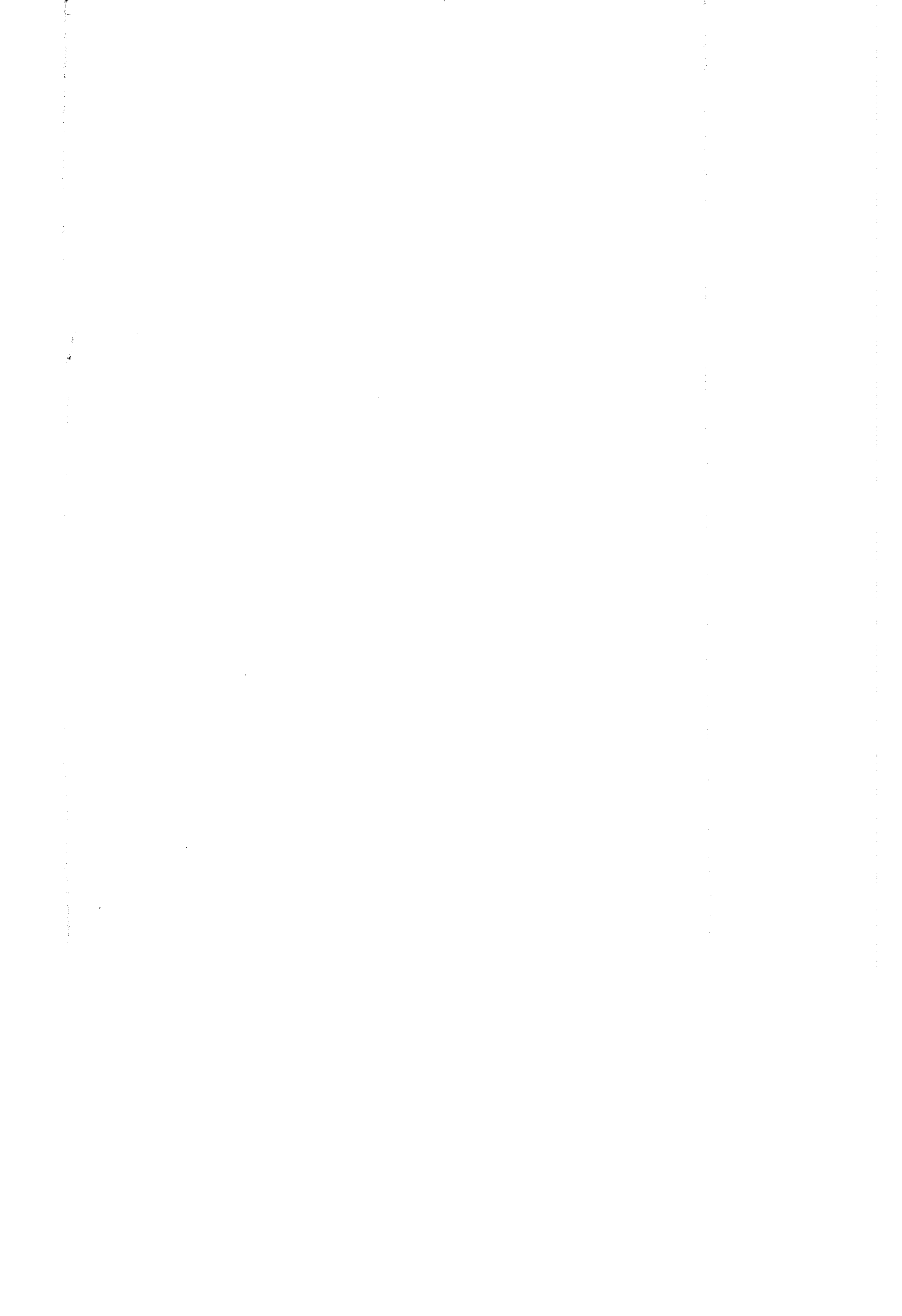


دولة الكويت
من أبحاث المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية

أولاً إلى الشباب

الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل


أولاً
إلى الشباب



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هـذه محاضرات أربـع من أعـمال المؤتمـرات العـالميـة للمنـظمـة الإسلامية للعلوم الطبية، يتدرج نسقها من معالجة العلاقة بـين الإيمان والشفاء، إلى العلاقة بين الإسلام والطب : عقيدة وتشريعا وممـارسة، وتأخذ من هذه الساحة العريضة خطاً محـدداً فتتناول المحـاضرة الثالثـة العـلاقـة بـين الشبـاب والعلماء لتنتهي المحـاضرة الـرابعـة إلى دراسـة الشبـاب بـين الـبراءة والإدانة، مـع نظرة مستقبليـة تضع بهـا الشباب الإسلامي في المنظور العالمي .

ولقـد كان اختيـار هذه المـوضوعـات وتتابعهـا إحدى ثـمار حوار متصـل تقوم بـه المنظمـة وهي تمهد لمؤتمـراتها ونـدواتها ثم تختـار منهـا حلقـات متصلة تعدهـا للنشر، تتناول مـوضوعـا ينمو مـع المؤتمـرات، وتتحدد آفاقه من تفاعل الأفكار على المستوى الإسلامي العالمي .

إن المنظمة تحمل اسم الإسلام، والاسم مسئولية ومنهـج . وهي منـظمة طبيـة : وأفق الطب اتسـع في المدلـول العالمي الحـديث ليضم الجوانب الجسمية والنفسية، ويعني بالجوانب الاقتصادية والاجتماعيـة، في نهج تكـاملي نحس بـه أصيل الجـذور في الحضارة الإسـلامية، التي

تناولت الإنسان كفرد وكعضو في جماعة، دون اهدار لحق الفرد ولاحق الجماعة، وتولت العناية به من أقطاره، لينمو نموا متوازنا يستطيع معه أن يؤدي ما عليه من مسئوليات بعد أن يسّر له المجتمع الحقوق.

وإن مسئوليتنا المعاصرة أن نحسن فهم هذا الدين الذي أكرمنا الله به، وأن نتعاون على رسم خطوط الحضارة الإسلامية المعاصرة في سيرها إلى مستقبلها. ولا يتوفر هذا إلا بتعاون بين المختصين والعلماء على مستوى أفقي، وبتعاون بين الأجيال على مستوى رأسي، وبتفاهم وثيق بين المفكرين وصانعي القرار. كل هذا في دوائر علمية تعنى بالتخصص دون انغلاق، وبالنظرة الشاملة دون إهدار للتخصص.

وإن التجربة الرائدة التي قامت بها المنظمة - بتوفيق من الله تعالى - قد أتاحت الفرصة لكثير من المتخصصين في آفاق المعرفة المتكاملة مع الطب، أن يلتقوا وأن يتحاوروا. وكنت ترى الأطباء وفقهاء الشريعة الإسلامية والقانون وأساتذة علم النفس والاجتماع وعلماء النبات والحيوان... تراهم جميعا حول مائدة حوار واحدة، يتناولون موضوعا محوريا من جوانب متعددة. كانت التجربة أول الأمر جديدة. ولكن بتكرارها زادت بينهم الألفة، وامتدت مساحة التفاهم وسهل بينهم الوصول إلى القرار بعد الحوار.

ولقد لقيت هذه التجارب تشجيعا وتوجيها كريما من حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت الشيخ / جابر الأحمد الصباح حفظه الله، ومن ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء سمو الشيخ / سعد

العبدالله السالم الصباح ـ ومن الزملاء في الحكومة الكويتية. ومن العديد من الأخوة الحريصين على ديننا الإسلامي الحنيف ومن أصحاب الكلمة والرأي في هذا المجال.

ولقيت ترحيبا من الحكومات الإسلامية ومجامعها العلمية، وشارك فيها بعد هذا أساتذة عالميون من مذاهب وأديان متعددة توسيعا لدائرة الحوار وسعيا إلى المزيد من الفهم والتفاهم، وإزالة للشبهات التي علقت بالحضارة والفكر الإسلامي.

ولقد تفضل حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت حفظه الله بأن جعل نشر هذه المطبوعات وترجمتها بالتعاون مع مؤسسة الكويت للتقدم العلمي التي يرأس سموه مجلس إدارتها.

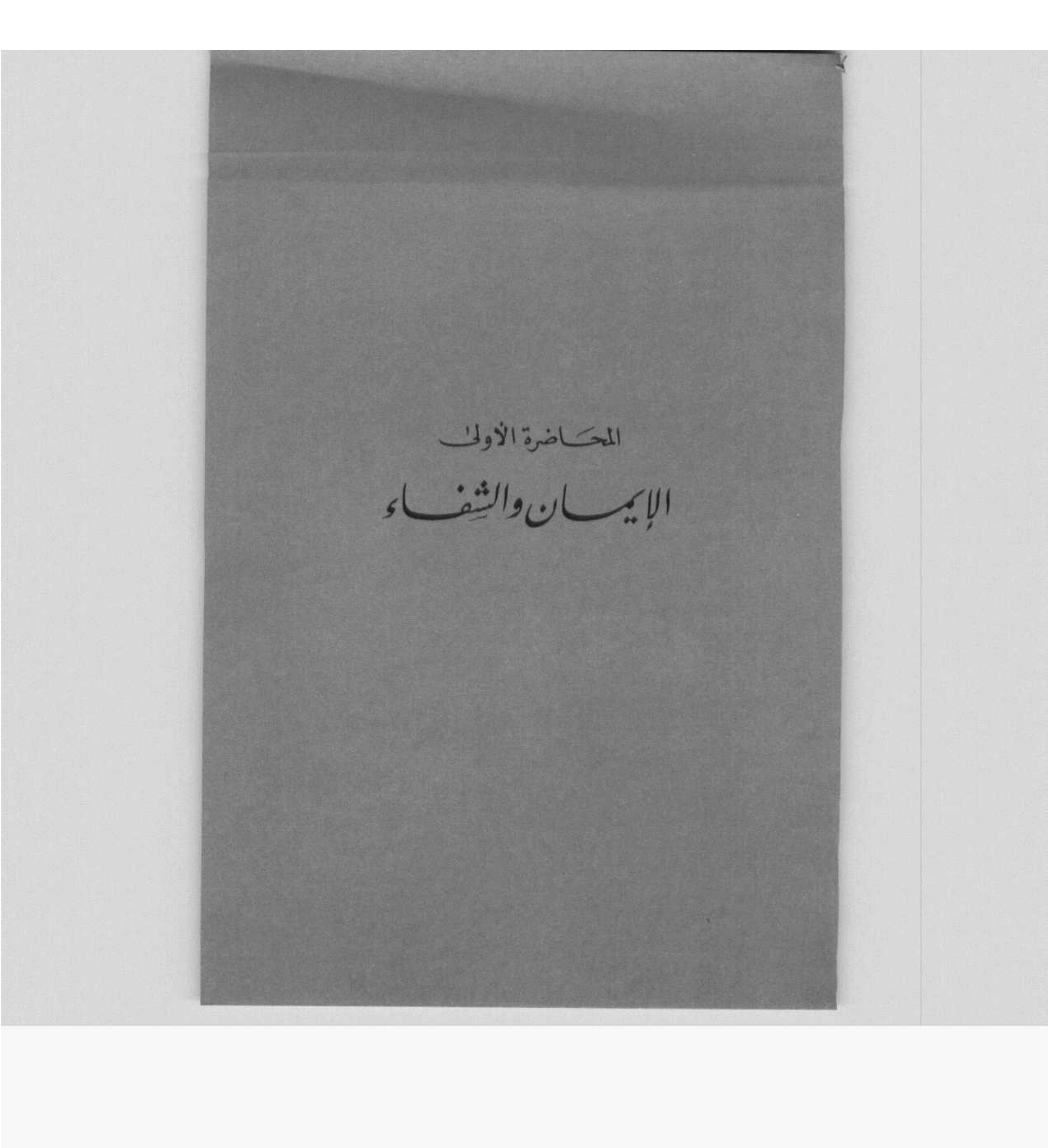
هذا بالاضافة إلى مشروعات أخرى تثري جوانب الحضارة الإسلامية مثل قاموس القرآن الكريم وأطلس الخدمات الإسلامية، التي تفضل سموه فجعلها من هدايا الكويت إلى العالم الإسلامي في كلمته إلى رؤساء الوفود الإسلامية يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٨٨م في قاعة مجلس الأمن، وذلك في اليوم السابق لالقاء خطابه الجامع على منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ٢٨ سبتمبر باسم ألف مليون مسلم وبوصف سموه رئيس الدورة الخامسة لمؤتمر القمة الإسلامي.

كل هذه روافد تصب في نهر الحضارة الإسلامية. روافد من الطب ومن العناية بالشباب، وبالتعاون الواسع الذي ترجو أن يزدهر به وجه الحياة..

وإن هذا الكتاب باكورة السلسلة التي تعتزم المنظمة نشرها. وتم اختيارها لأنها تجمع بين العلم والإيمان ومشاكل الشباب ومؤلفنا الأستاذ الدكتور / عبدالعزيز كامل غني عن التعريف، فله من المؤلفات ما يزيد عن عشرين. وعاصر فكرة المنظمة منذ كانت في المهد، ولم يتغيب عن أي نشاط قامت به المنظمة، إيمانا منه بأهدافها وطريقة عملها وتميزت هذه الأبحاث بالعمق والأصالة. فالمؤلف عاش تجربة ثرية في حياته متقلدا مناصب كثيرة بين أستاذ في الجامعة إلى أعلى المناصب الادارية، وانعكس ذلك على فكرة وسلوكه، فجاءت الأبحاث ترجمانا لنشاطه الفكري والعلمي ورصيده الضخم من الخبرة بالحياة والنظرة الموضوعية إليها.

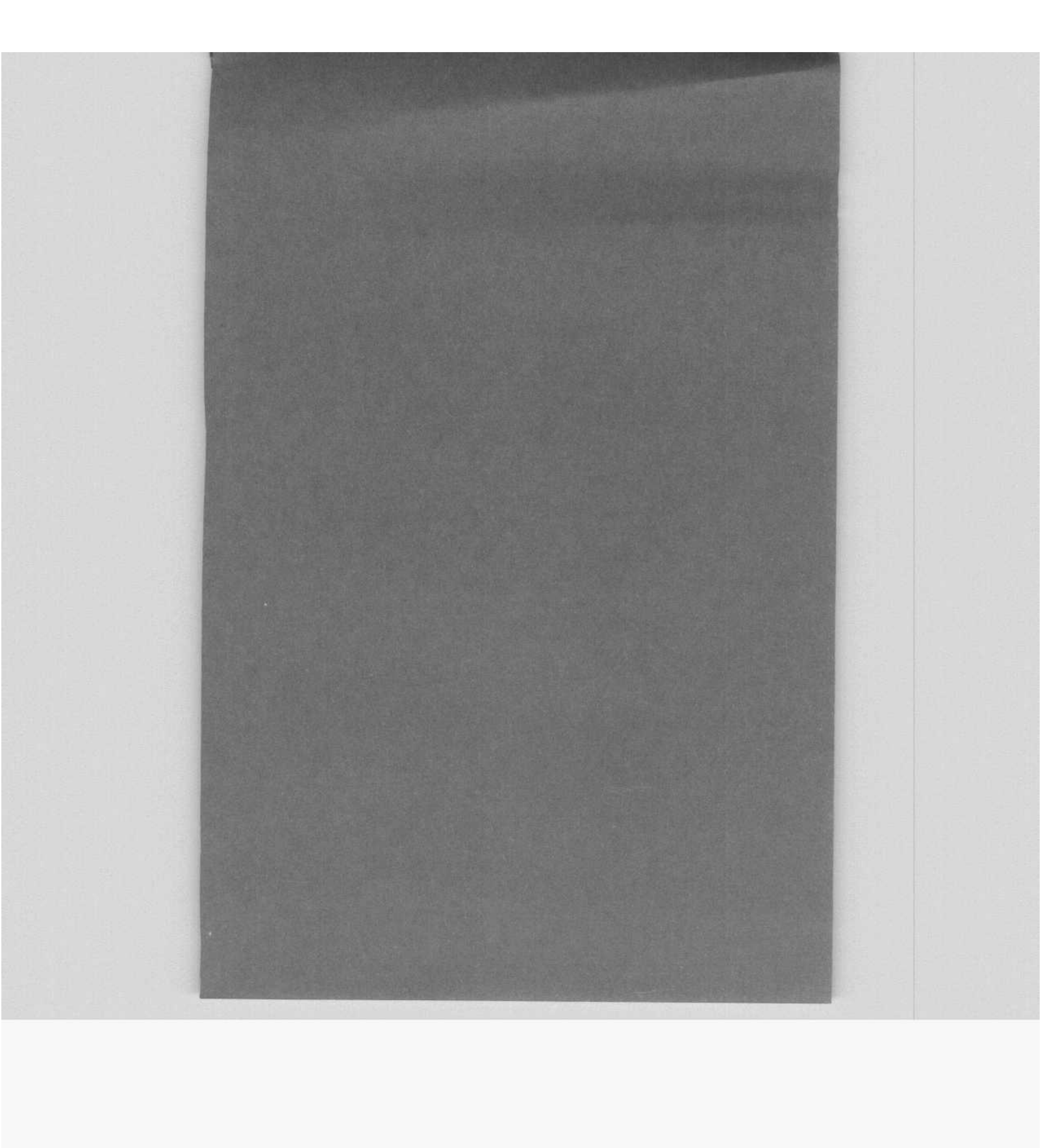
والله أدعو أن ينفع به الإسلام والمسلمين وأن يوفقه إلى ما يحبه ويرضاه ويحتسب ذلك في ميزان أعماله. والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل.

دكتور
عبدالرحمن عبدالله العوضي
رئيس المنظمة



المحاضرة الأولى

الإيمان والشفاء



الإيمان والشفاء*

ملخص

١ ــ الإيمان ـ كما يوضحه القرآن والأحاديث النبوية ـ مفهوم شامل يضم علاقة الفرد بربه وبنفسه وأسرته والمجتمع والإنسانيـة والكون . وبعبارة أخرى : بيئته الطبيعية والبشرية وعلاقـاته بعـوالم الغيب والشهادة .

٢ ــ والشفاء مفهوم ثلاثي الأبعاد : الأول جسمي ، والثاني فكري ، والثالث نفسي وأخلاقي . وأي انحراف في واحد من هذه الثلاثة يعتبره الإسلام مرضاً يحتاج إلى علاج .

٣ ــ ويبدأ الإسلام بتصحيح نظرة الإسلام إلى قضية الـوجود ، لـماذا جئت إلى هذه الدنيا وما مهمتي فيهـا ؟ وفي هذا ينفـرد الإسلام بموقف يختلف عما نجد ـ في العهد القديم ـ في سفر التكوين ، وعما

(*) ألقيت في المؤتمر الثاني للطب الإسلامي بدولة الكويت في شهر مارس ١٩٨٢ ونشرت في كتاب أبحاث المؤتمر العالمي الثاني للطب الإسلامي .

نجد في العهد الجديد ، وبخاصة في أعمال الرسل . فمهمته هي أن يكون خليفة الله في أرضه . لم يأت هنا عقوبة على ذنب منه ، ولا من الأب الأول .

٤ ــ وبعد أن يقيم الإسلام ميزان العدل والرحمة بين الله والإنسان وبين الإنسان ونفسه ، يدعوه إلى العدل والإحسان بينه وبين إخوانه في الإنسانية وبين الكون الذي يعيش فيه .

٥ ــ هذا الميزان يقتضي منه المحافظة على ودائع الله عنده ، ومن أهمها سلامة الدين والعقل والجسم والمال والنسل . وهذه المحافظة لها جانبان ، أولهما : وقائي ، والثاني : علاجي . والجانبان لهما أبعادهما الثلاثة : الجسمية والفكرية والنفسية .

٦ ــ فإذا كان الإنسان صحيحاً كان عليه المحافظة على الصحة . وإذا انحرفت الصحة كان عليه البحث عن السبب ومعالجته ، والصبر على الألم ، والشكر على زواله .

٧ ــ والإسلام يربط الحياة الدنيا بالآخرة ، وفي هذا يخالف كثيراً عما ساد في الحياة الحديثة عن الحياة الآخرة . فالحياة عند كثير من الغربيين تضم دنياهم وأخراهم ، ومن بعدها عدم . أما في الإسلام فبعد الوجود خلود .

٨ ــ وبهذا تصبح هذه الحياة حلقة من سلسلة وجود أكبر . وهذا الإيمان يغرس في النفوس طمأنينة تستطيع بها أن تكون أكثر توازناً وهي

تقابل أمور الحياة .

٩ ــ والاقتراح المقدم في نهاية هذا البحث هو :

« تكوين مكتبة تبدأ صغيرة ثم تنمو . وليكن اسمها « مكتبة الشفاء » تستهدف صالح الإنسان عامة ، والمريض خاصة ، وتتناول جوانب الإيمان والشفاء ، والعلاقة بينهما ، وتعين الإنسان على المحافظة على صحته (في مفهومها الشامل : الجسمي والنفسي والفكري) ، وتصاحبه إذا مرض ليأخذ بأسباب العلاج صابراً على آلامه ، فإذا استعاد صحته كلها ـ أو بعضها ـ كان منه شكر الله ، ومتابعة حياته وإنتاجه .

١٠ ــ وهناك جهود سابقة للعلماء في ذلك ، أغلبها لمتخصصين في الدين أو في الطب . وفي عهد التخصص والتكامل الذي نعيشه تحتاج « مكتبة الشفاء » إلى تعاون ، وإلى أن تكون في مستويات متدرجة للصغار والشباب والكبار ، وقد يتكون منها مكتبة مسموعة ، ومسموعة منظورة ، بالإضافة إلى الكلمة المكتوبة :

مكتبة فيها التوجيه الطبي ، والآية القرآنية ، والحديث الشريف ، والقصة ، والقصيدة، وجوانب من الانتاج الفني الملائم لهذه الأهداف. ولعلها ـ في مكتبة المستشفى ـ أن تكون عوناً للعاملين فيها والزائرين من المرضى ، ومادة مساعدة في دوائر الاذاعة والتلفزيون المغلقة في المصحات والمستشفيات.

(١) بين المعرفة والإيمان

في مطلع هذه الدراسة أود أن أفرق بين المعرفة والإيمان ، في المفهوم الإسلامي . وهو مفهوم يختلف عما يسود في الغرب الآن من تحديد لكل منهما :

ففي الإسلام يعتبر الوحي الإلهي أعلى مصادر المعرفة . وباباً أساسياً من أبواب العلم . والله تعالى يقول مخاطباً نبيه ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾ (النساء : ١١٣) وعلم الله رسوله أن يقول في دعائه ﴿ **وقل رب زدني علما** ﴾ (طـه : ١١٤) . وفيما يتعلق بقصص الأولين قال الله له ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ (يوسف : ٣) .

وبيّن الله له آفاقاً ومصادر أخرى للمعرفة في قوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ (فصلت : ٥٣) .

ومن هذه الآيات تبدو لنا مصادر أربعة أساسية للمعرفة :

(١) الوحي .

(٢) التاريخ .

(٣) الآفاق وهي الكون من حولنا بأرضه وسمائه .

(٤) النفس الإنسانية بكل علومها .

وفي قوله تعالى ﴿ سنريهم ﴾ دلالة على تفتح مستمر لآفاق المعرفة جميعا . والوحي الإلهي إذا كان الله قد ختمه بالقرآن الكريم ، آخر كتب الله، وقد أنزله على خاتم النبيين ، فإن آياته ممتدة ، وفيها اتساع ، ودعوته دائمة إلى إعمال العقل والفكر ، بحيث تظل كلمة ﴿ سنريهم ﴾ دعوة دائمة إلى مزيد من البحث والمعرفة ، وحافزاً لكل باحث أن يستمر في طريقه الصاعد المتفتح .

أما عن الإيمان : فإن الإسلام يربط فيه بين القول والعمل، وبين الفكر والعقيدة ، وبين النظرية والممارسة والإحساس بها . ولهذا حين يتحدث القرآن عن الإيمان ، يكون حديثه عن مداخله إلى النفس ، وعن آثاره فيها . أما « ماهية الإيمان » فهي التجربة ذاتها ، ولا سبيل إلى الحديث عنها . وإلا : فكيف تصف اللون لمن كان محروماً من نعمة البصر منذ طفولته ، أو تصف الفرق بين الروائح لمن كان محروماً من حاسة الشم ؟!

إن الإسلام يمهد للإيمان بالمعرفة . وعندما يمر الإنسان في تجربة إيمانية يزداد بها معرفة . وتصبح جزءاً من رصيده الفكري ، وتدعوه إلى مزيد من التجارب . وبهذا يحدث ويستمر التفاعل بين المعرفة والإيمان ، وتتشعب هذه المعرفة بتشعب المجالات التي يمارس فيها الإنسان إيمانه . ومما يعينه على عمق واتساع وصفاء التجربة الإيمانية ، أن تكون مصادرها من أول الأمر معينة على ذلك . ثم يحس الفرد الممارس لها بأثرها في نفسه ، فيصعد منها إلى تجربة أخرى . فإذا التجربة تتحول عنده إلى

مستـوى سلوكي ، ثم يدعـوه المستوى السلوكي الجـديـد إلى تجـربـة جديدة . . هذا التبادل أو التتابع بين التجربة والمستوى هو الذي يعبر عنه الفكر الصوفي الإسلامي : بالحال والمقام . الحال هو التجربـة ، والمقام هو المستوى . والمؤمن يتدرج من مقام هو فيه ، عن طريق ممارسة حال جديدة ، إلى مقام جديد يرقى إليه في تتابع مستمر . .

بعبارة أخرى : يتحول عنده الحال ـ وهو التجربة الجديدة ـ إلى مقام ، هو مستوى جديد ، لينطلق منه إلى تجربة ـ هي حال ـ لتتحول إلى مستوى . . . وهكذا .

وفي الحديث عن الإيمان ـ لا يعرضه هذا البحث بصورة مطلقة ومجردة . ولكن كما يصوره الإسلام . وله مفهومان أساسيان :

الأول: شامل يضم النبوات جميعاً ، وهو كلمـة الله لكل نبي ولكـل أمة . يقول الله تعالى : ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾ (النساء : ١٣١) . ومن أجل ذلك على المسلم أن يؤمن بما جاء به النبيون من قبل . يقول الله تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نُفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ (البقرة : ٢٨٥) .

الثاني : شريعة الإسلام التي أنزلها الله على خاتم أنبيائه محمد عليه وعلى

جميع الأنبياء من قبله الصلاة والسلام . وتضم دائرة الإيمان الشاملة السابقة ، ولا خلاف في العقيدة بينها - وهي التوحيد - وبين ما نادى به النبيون من قبل . وإنما يأتي تميزها بتفاصيل في العبادات والمعاملات والأخلاق . وهي تفاصيل إذا كانت تعطي المجتمع قسماته العامة فإنها لا تقيد حركته في انطلاقه نحو مستقبله ، بل تضع عنه الأغلال التي تقيد هذه الحركة . وبهذا وصف الله مهمة خاتم النبيين فقال ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

وإذا كان هذا البحث يعرض للإيمان في عمومه ، فإنه يعني به في خصوصياته الإسلامية ، كما جاءت في القرآن والسنة النبوية . ولأهل كل دين أن يدرسوا - وفق ما يعتقدون - العلاقة عندهم بين الإيمان والشفاء ، من الناحيتين النظرية والعملية وتجاربهم ومشاهداتهم في هذا المجال .

(٢) العزلة والمرض والأب الأول

في حياة المريض عزلة ، حتى وإن كان بين أهله أو في مستشفى . فالأهل قادرون على الحركة . والمرضى في المستشفى من حوله ، لكل منهم شأن يغنيه . وأول ما يحس به المريض إذا لزم الفراش ، أنه

أصبح ـ كالنبات ـ مغروساً في الأرض ، مرتبطاً بمكان ، ويعود إليه هذا الجانب من إنسانيته عندما يستعيد القدرة على الحركة . وهو حين يعجز عن حركة الجسم ، تنشط فيه حركة الفكر ويسائل نفسه عن حكمة المرض ، وقد يمتد به الفكر ليسأل نفسه عن حكمة الألم والوجود ذاته ، ويعود به التساؤل إلى النشأة الأولى : لماذا جئت إلى هذه الدنيا ؟ وما العلاقة بيني وبين الأب الأول وقصته ؟ .

أكثر من زميل ممن يعملون في ميدان التحليل النفسي ، قابلتهم هذه الأسئلة ، عندما يشتد اليأس بمريض ، جاء يستشيرهم في أمره .

وفي منطقتنا التي أنزلت فيها الديانات السماوية : تبرز روايتان لقصة آدم : رواية العهد القديم التي تأخذ بها اليهودية والمسيحية ، ورواية القرآن التي يؤمن بها المسلمون .

وبين الروايتين فروق جوهرية ، ترتبط أساساً بصفات الله كما جاءت في سفر التكوين .

ويعقب كارل يونج على هذه الصفات بقوله في بحث له عن سفر أيوب فيقول :

« قبل سفر أيوب هناك دلائل كثيرة على صفات يهوا ـ الإله ـ كما يصوره العهد القديم ـ الذي لا توسط عنده في انفعاله . والذي عانى من أجل ذلك . . . وقد اعترف بأنه خضع لسورة الغضب، وأعماله سرت فيها الرقة والحب مع القسوة ، والابداع مع التدمير . . كل هذا كان ،

ولم تكن صفة منها تحجب الأخرى»[1] .

وحينما يقرأ الإنسـان سطور عقـوبة الأبنـاء بذنـوب الآباء ، لا يستـطيـع أن يـدرك الصلة بـين حجم الـذنب وضخـامـة العقـوبـة وامتدادها؛ والنماذج في هذا: من قصـة آدم وما لحقـه من عقوبـة هو وزوجتـه ، حتى الحية، بعـد الأكل من الشجـرة ، ومن قصة نـوح، والعقوبة التي استند إليها بعض من حاولوا تبرير التفرقة العنصرية بين البيض والسود في جنوب أفريقيا باعتبار السود من نسل كنعان وهو « عبد العبيد . . يصير لاخوته » . حينما يقرأ الإنسان هذه السـطور وهو في مرضه لا يحس انسام الرحمة التي يرجوها ، وهو في هذا الضيق .

ولما جاءت المسيحية تعترف بالعهد القديم ، كان عليها أن توجد « المعادل » للخطيئة الأولى ، وتدخل عنصر « الفداء » ، ليمحو آثـار الخطيئة ، عن الذين سبقوا المسيح عليه السلام ، والذين جاءوا بعده . وبهذا ترابطت في الفكر المسيحي : الخطيئة الأولى والعقوبة التي حلت بآدم وزوجه وأولاده ، واللعنـة التي حلت حتى بالأرض وتعب الحيـاة للرجل والمرأة والذرية . . . وظلت هذه اللعنة تلاحقه حتى جاء المسيح بالفداء والمغفرة . وإذا كانت المذاهب المسيحية قـد تباينت في ألـوهية المسيح وبشريته ، فإنها تتفق أسـاساً في نبـوته . والنبي لا ينـطق على الهوى . ولا يتصـرف بأمر نفسه . وكأن مغفرة الله ظلت معلقة من بدء الخليفة حتى جاءت المسيحيـة ، فشملت من قبلها ومن بعـدها ، من عرف المسيحية ومن لم يعرفها ، هكذا نقرأ في أعمال الرسل[2] .

والقصة في القرآن تختلف عن هذا اختلافاً جوهرياً : في أن المغفرة جاءت لاحقة مباشرة للتوبة ، والتوبة جاءت مباشرة بعد الخطيئة ، ولم تترك وراءها آثاراً ، إلا ما فيها من العبر العميقة في طاعـة أمر الله ، والابتعاد عن أغواء الشيطان والشر[٣].

يقول الله تعالى ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾ (طه : ١٢١ ـ ١٢٢).

ويقول تعالى ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتـاب عليه انـه هو التواب الرحيم** ﴾ (البقرة : ٣٧) .

ولا نقرأ في القرآن الأوصاف المنسوبة إلى الله في سفر التكوين من سرعة الغضب والمؤاخذة والعقوبة وبطء المغفرة، والتي لا نقرأ لها تخفيفاً في الفكر المسيحي إلا في قصة الصلب والفداء . وهي مما يختلف فيـه القرآن عن الأناجيل .

ويبدو بهذا أثر المنهج القرآني في الأخذ بيد الإنسان إذا أخطأ ، وسرعة المغفرة إذا تاب ، والهداية بعد المعصية، وإنه لا يحمل ذنب أب أول ، في أمر لم يشهده ، ولا يد له فيه. وإنما صحيفته مع الله بيضاء يكتب فيها أعماله بجهوده ورحمة ربه ، ويتحقق للعبد معاني ما يقرأ في أول صلاته ، وأول ما يفتتح به القرآن ، وأول كـل عمل ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ .

وصفوة القول أن الإنسان لن يحس بموجدة على الأب الأول ، وانه

كان سبب ما يلقاه في الدنيا من عناء : فآدم عند الله نبي كريم . مرّ في تجربة أعقبتها مغفرة .

والإنسان في هذه الدنيا لمهمة أخرى غير التكفير عن خطأ غيره .

وفي حديث الإسراء والمعراج كان آدم ـ النبي الأول والأب الأول ـ أول من لقي المصطفى في السماء الأولى . وهي مكانة تكريم لا عقوبة(٥) .

(٣) الخلافة

الأمر الثاني الذي يساعد على رفع معنويات الفرد في حياته العامة ، وفي أوقات المرض والضيق بخاصة ، هو إيمانه بوضعه في الحياة : يأتي إليها ـ كما سبق القول ـ بصحيفة بيضاء ـ وعليه أن يعمرها بالعمل والإنتاج . . وهو في هذا خليفة بأمر الله في أرضه .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (البقرة : ٣٠) .

ويقول تعالى فيما يقصه عن ثمود ونبيهم صالح **﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾** (هود : ٦١) .

وأن هذه الآفاق من حوله : آفاق الأرض والسماء جعلها الله له متاعاً ومجالاً .

قال تعالى : ﴿ **ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ (البقرة : ٣٦) ويقول : ﴿ **هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعا** ﴾ (البقرة : ٢٩) .

والله يدعو إلى الحركة فيها :

﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة** ﴾ (العنكبوت : ٢٠) .

هذه الآيات : دين من حيث مصدرها ، وهي أمل دائم في نفس أي إنسان : أن يزداد معرفة بآفاق الحياة والنفس والكون . وإذا كانت المعرفة في ذاتها بهجة ودافعاً ، فإنها إذا ارتبطت بالدين أعطت للحياة معنى أجمل ، يجعل الإنسان أشد رغبة في عمران الحياة بالعمل والانتاج ، وبالتالي ، استعادة صحته إذا كان مريضاً :

فهو في مرضه سينظر إلى الكون من حوله نظرة صداقة . . هكذا يعلمه القرآن .

هذه السماوات من فوقه وما فيها من كواكب: ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً** ﴾ (نوح : ١٥ ـ ١٦) .

وهـذه الأرض يقول فيهـا ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نبـاتـاً ثم يعيدكم فيها ويخركم إخراجاً** ﴾ (نوح : ١٧ ـ ١٨) .

وهذه السهول والجبال يقول فيها ﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سُبلاً فجاجا** . . . ﴾ (نوح : ١٩ ـ ٢٠) .

والنـاس من حولـه أسرة كبيـرة واحـدة ، أبـوهم واحـد وأمهم واحدة . يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجهـا ، وبث منهما رجـالاً كثيراً ونسـاء . واتقـوا الله الذي تسـاءلون بـه والأرحام. إن الله كـان عليكم رقيبـا** ﴾ (النساء : ١) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « الناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب» . قال الله تعالى ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾» من حديث رواه الترمذي عن ابن عمر .

وإذا كان الناس يختلفون في الألسنة والألوان . فهذا مظهر لقدرة الله . وعلى الناس أن يتعارفوا ويتعاونوا :

﴿ **ومن آيـاتـه خلق السمـــاوات والأرض واختـلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾ (الروم : ٢٢) .

ويقـول تعالى : ﴿ **يـا أيها النـاس إنا خلقنـاكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير** ﴾ (الحجرات : ١٣) .

ويربط الإسلام بين الإيمان والاستخلاف والعمل الصالح :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . . . ﴾ (النور : ٥٥) .

(٤) الإيمان بيوم الحساب

وكل ما عند الإنسان في حياته ودائع من الله : حياته، حواسه، عقله، ماله، أسرته وأولاده .

وللشريعة الإسلامية مقاصد خمسة رئيسية ، على كل إنسان أن يرعاها ويحفظها : الدين والعقل والنفس والمال والنسل . وإذا كان علماؤنا قد تحاوروا في تفضيل وتقديم بعضها على بعض، فإنهم يلتقون عند أهميتها جميعاً . ويهمنا منها في دراستنا هذه المحافظة على النفس والعقل . وبعبارة أخرى صحة البدن وصحة النفس . وهما أمران يعين عليهما صحة الدين والمال والنسل .

عملياً نجد هذه الخمسة تتبادل التأثير : الإيمان يدعو إلى صحة النفس والعقل ، ويعين عليهما وجود المال والولد . ووجود الولد يدعو الوالد إلى المحافظة على صحته حتى يستطيع أن يرعى أولاده. وصلاح الأبناء إيمان وعمل وإنتاج، وبر بالوالدين وذوي الأرحام ومساهمة في تقدم الحياة.

والعقل في الإسلام هو مناط التكليف فلا يحمل التكليف إلا عاقل. والنفس - وهي الحياة - بها يستطيع الفرد أن يحمل مسئولياته نحو المقاصد الأربعة الأخرى. . وهكذا.

وإيمان الفرد بأنه يلقى جزاء عمله في دنياه وأخراه يدعوه إلى الحرص على هذه المقاصد جميعاً .

هو في الدنيا والآخرة مجزي بعمله : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾ (آل عمران : ١٩٥) .

يقول الله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبَّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ (الأنبياء : ٤٧) .

ولكي يُؤدِّيها تعينه قوته الجسمية والعقلية . وقد مدحهما القرآن معاً : ففي قصة موسى قالت ابنة الرجل الصالح لأبيها : ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين . . .** ﴾ (القصص : ٢٦) . ونجمع الكلمتان : القوي الأمين : سلامة الجسم وسلامة العقل والأخلاق .

وفي قصة طالوت نقرأ الجمع بين صحة الجسم والعقل في قول الله تعالى : ﴿ **قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ (البقرة : ٢٤٧) . ونقرأ

الدعوة إلى القوة في قصة ذي القرنين : ﴿ **قال ما مكنّي فيه ربي خير ، فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً** ﴾ (الكهف : ٩٥) .

وبهذا يبدو الترابط بين المحافظة على المقاصد الخمسة ومن بينها الصحة الجسمية والعقلية ، وقدرة الإنسان على أداء أفضل في الحياة ، ووجوب الحرص على هذه العطايا الإلهية ، وجزائه عليها في الدنيا والآخرة .

وإيمان المسلم بأن وراء الحياة حياة ، يجعل الحياة أقوى من الموت في الإسلام : يأتي الإنسان إلى هذه الدنيا ، ويقضي فيها عمره ، ثم يتوفاه الله ، ثم يبعث يوم الحساب ، في حياة باقية ، يموت فيها الموت ويلتقي الوجود بالخلود .

هذا الامتداد ، الذي تمثل حياتنا هذه جزءاً منه ، يزيد من قدرة الإنسان على تحمل الألم ، ومغالبة نوازع الضعف . فهذه الحياة بكل ما يقضي فيها الإنسان من مشاق يتضاءل الإحساس بها يوم القيامة . ويقص الله علينا حواراً يدور يوم الحساب .

﴿ **قال : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادّين . قال : إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق . لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ (المؤمنون : ١١٢ ـ ١١٦) .

ويعين هذا التصوير القرآني الإنسان على تحمل الألم فمهما زاد فهو إلى زوال . وهذه الحياة - بكل ما فيها - يتضاءل الإحساس بها يوم القيامة ، كأنهايوم أو بعض يوم .

ولازلت أذكر صديقاً سبق إلى الله . وكان على درجة عالية من الإيمان به . عاش داعياً إلى الله ، واختبره الله بأن سبقته إحدى ساقيه ثم لحقت بها الساق الأخرى ، في عمليتي بتر متقاربتين . زرته في بيته وأخذ يحدثني عن حاضر العالم الإسلامي ومشكلاته ، وعيني يجذبها مكان الجراحات،وقد أخفت الأغطية معظم جسمه . . فنظر إلي مبتسماً وهو يقول :

ــ كل هذا محفوظ عند الله . وسيعود بإذنه . أحياناً تسبقنا بعض أجسادنا إلى الله . ولكن أدعو ربي أن يحفظ نعمة الإيمان به ، فيكون الإيمان بالله والصبر على قضائه شفيعاً لنا يوم اللقاء .

وعندي من الحديث ما أود أن أقول لك . ولكن قلبك موزع بين الألم والاستماع ، فحاول أن تجمع نفسك معي حتى أفرغ من قولي ، ثم ليذكر كل منا أخاه بالدعوة الصالحة بظهر الغيب. وعسى الله أن يجمعنا عنده ، كما جمعنا في دنياه على العمل لدينه» .

(٥) المنهجية العلمية والإيمان بالقضاء

والإسلام يدعو إلى الإيجابية والدراسة والأخذ بأسباب العلاج : ويحدد لنا الصنوف الرئيسية للمرض والشفاء[٦] وهي ثلاث لكل منهما :

المرض : قد يكـون في الجسم أو الأخلاق أو الفكـر . ويذكـر القرآن هذه الصنوف جميعاً :

مرض الجسم في قوله تعالى في قصة أيوب ودعائه ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ (الأنبياء : ٨٣) . وعـلى لسان إبـراهيم : ﴿ **وإذا مرضت فهـو يشفين** ﴾ (الشعـراء : ٨٠) .

ومرض النفس أو الخلق في قول الله تعالى وهو ينصح نساء النبي : ﴿ **يانساء النبي لستن كأحد من النساء أن اتقيتن فلا تخضعن بـالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفا** ﴾ (الأحزاب : ٣٢) .

ومرض الفكر وانحـرافه جـاء وصفاً للمنـافقين : ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ (البقرة : ١٠) .

أما مجالات الشفاء فهي الأخرى ثلاثة أساسية :

أولها جسمي : في قوله تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين . . .** ﴾ (الشعراء : ٨٠) .

وثانيها فكري : يبدأ أول ما يبدأ بتصحيح العقيدة . ويقول الله تعالى واصفاً القرآن الكريم : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا** ﴾ (الإسراء : ٨٢) .

أي انهم إذا بعدوا عن هدية وكفروا به كان عليهم حجتـان : البعد عن القرآن تكذيباً به ، ومقارفة السوء .

وهذا الشفاء القرآني فيه شمول يشمل الجوانب النفسية والفكرية معاً .

يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ (يوسف : ٥٧) .

ويـذكر القـرآن أساليب متنـوعة في العـلاج ، وهي فيه ليست للحصر ، ولكن دعوة إلى التماس الشفاء والبحث عن أسبابه :

عن الماء والنظافة الداخلية والخارجية ، يذكر الله تعالى في علاج أيـوب : ﴿ **اركض برجلك هـذا مغتسـل بـارد وشـراب** ﴾ (ص : ٤٢) .

وعن عسل النحل يقـول تعالى : ﴿ **يخـرج من بطونها شـراب مختلف ألـوانه فيـه شفاء للنـاس ان في ذلك لآيـة لقوم يتفكـرون** ﴾ (النحل : ٦٩) .

وفي سورة النحل نقرأ مدخلاً يدعو إلى السعي والعمل والبحث عن الرزق . يقول تعالى في صدر الآية السابقة : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً** ﴾ (النحل : ٦٩) .

فالعمل من أجل الحياة وكل ما يعين عليها أساس في الإسلام ، وينتفي به الفكر السلبي الذي نسبه البعض إلى الإسلام بغير بـرهان أتاهم .

وإذا كان مفهوم الإسلام ديناً هو « إسلام النفس لله » فإن إرادة الله أن يكون الفرد عاملاً إيجابياً منتجاً ، يسير في حياته بنور الوحي ونور العقل - ولا تعارض بينهما .

يقول تعالى : ﴿ **اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** ﴾ (العنكبوت : ٤٥) . ويقول : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ (التوبة : ١٠٥) . ويقول : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ (الإسراء : ٣٦) .

وجعل عدم استخدام العقل « خطأ » و « ذنباً » يستحق العقوبة فقال تعالى واصفاً قوماً لم يستخدموا عقولهم : ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾ (الملك : ١٠ - ١١) .

وبجمع هذه الآيات تترابط أمامنا سلسلة من الأعمال : الاستماع إلى الوحي . العبادة . ترجمة الإيمان إلى انتاج وعمران للحياة . أن يقوم ذلك على أساس من الدراسة العلمية . أن الإنسان مسئول عن ذلك . أن تعطيل أي مرحلة من هذه خطأ وذنب .

ولا يدخل في هذا قضاء الله وقدره . فالعلم ـ في الإسلام ـ صفة من صفات الكمال الإلهي . والعليم من أسمائه الحسنى . وهـو علم يستوي فيه ما نعتبره نحن : ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً : قال الله تعـالى : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ (الحديد : ٣) .

وإذا كـان العلم يحدث لنـا بتجربة وإرادة، فهو عنـد الله صفة كمال ، وهي لا تقيّد إرادتنا ، ولكن تطلقها فيما نختار أن نعمل .

والمؤمن عليه أن يغالب الأقدار بالأقدار ، كما يقـول الإمام ابن القيّم . فربان السفين الماهر يغالب الريح العاصفة ، والموج العالي ، والصخـور البارزة ، والشـطوط المختفية ، مستعينـا بمهـارتـه وحـركـة الريح واتجاه التيار . . وهذه كلها من أقدار الله .

ولمحمد إقبال كلمة عميقة يقول فيها :

«إن المؤمن الضعيف يحتجّ دائماً بقدر الله . أما المؤمن القوي فهو في ذاته قدر من أقدار الله» .

بعبـارة أخرى : يستـطيع أن يغـير من الواقـع حولـه إلى واقع أفضل ، لأنه في ذاته قَدَرٌ له قوة التغيـير، فلا تعـارض إذن في المنطق الإسلامي بين كمال علم الله ، وحرية الإنسان وإرادته . وهي إرادة تدعو دائماً إلى توقي المرضى ، وطلب الشفاء ، وتطوير العـلاج ، كما تدعو الـطبيب إلى بذل الجهـد ، دون يأس منـه ، ولا من المريض .

فاليأس في الإسلام قرين الكفر . يقول الله تعالى : ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ (يوسف : ٨٧) . وهو ان اشتد عليه المرض صبر . وهو مثاب على الصبر . يقول الله تعالى : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ (الزمر : ١٠) والصبر في الإسلام صنوف : صبر على طاعة ، وصبر عن معصية ، والطاعة في موضوعنا هذا التزام النظام السليم في المطعم والمشرب والمسكن والنوم والرياضة والعمل . . والصبر عن المعصية ابتعاد عن المحرمات والمنكرات ، مما يضر بصحة الإنسان أو أخلاقه أو معنوياته . هذه النواحي كلها دين وصحة . إيمان وسبيل إلى الوقاية والعلاج والشفاء . ومهما يشتد عليه الموقف ، يستمد من الإيمان قوة تعينه على مقابلته ، والتماسك أمامه ، حتى ينتصر أو يلقي ربه ، أو يظل صابراً وهو راضي النفس ، بعد أن بذل الجهد ، وأدى ما عليه من واجب .

ولهذا يستبعد الإسلام أن يعمد المؤمن إلى الانتحار ويضع حداً لحياته . فالحياة لها قداستها ، ووراءها حياة . ويلتقي الإسلام في هذا مع غيره من الديانات أو مذاهب الديانات التي تؤمن بالجزاء بعد هذه الصيغة من الحياة[٧]، وإن تعددت فيها طرق الإيمان : المؤمنون بالمسيحية ، وبعض المذاهب اليهودية ، وكذلك عقيدة الخلود ـ بالتناسخ ـ عند البوذية والهندوكية ، كل أولئك جعل معدلات الانتحار بين أصحاب هذه الأديان منخفضاً . أما في قطاعات من الفكر الغربي حيث أصبح الإنسان يعتبر نفسه مبدأ ونهاية . ولا شيء بعد الموت .

وأن هذه الحياة هي العمل وهي الجزاء . وأنه لا عدل هناك بعد ظلم يلقاه هنا ، ولا راحة هناك بعد ألم أو مرض يتحمله هنـا . لما كان الأمر عندهم كذلك استباح بعضهم لنفسه أن يضع لحياته حداً ، فهو مالك هذه الحياة ، والمتصرف فيها ، دون قوة أعلى منـه ، ولا حياة أخـرى وراءها ، هكذا أصبحوا يعتقدون .

لذلك زادت عندهم العيادات النفسية ، وكثر التوتر في المجتمع ، ذلك لأن الإيمان « صمام أمان » يستطيع به الإنسان أن يعادل التوترات التي تلقاه . وللإمام ابن تيمية كلمة يصف بها شعوره نحو ما يلقي من عنت في سبيل الإسلام بالسجن تارة وبالإخراج من الوطن تارة . . . يقول :

«إن سجني خلوة، ونفيي سيـاحة (أي رحلة)، وقتلي شهادة» (أي شهادة في سبيل الله) .

وكان يقول إن الله قد فتح عليه من أبواب المعرفة في سجنه شيئاً كثيراً ، وكذلك الأمر مع تلميذه ابن القيم .

فالإيمان له قدرته على تغيير موقف الإنسان من أحداث الحياة، ومن بينها المرض .

وعندما اشتد المرض على أبي بكر ـ الخليفة الأول لرسول الله وبذل مَنْ حوله الجهد في علاجه ـ سأله أحد عواده :

ــ هل عادك الطبيب ؟

ـ قال : نعم .

ـ قال : ماذا قال لك ؟

ـ قال : إني فعال لما أريد .

فربط بين الإيمان ، والسعي نحو الشفاء ، والرضا بقضاء الله . ومن قبل هذا كان المصطفى عليه الصلاة والسلام يبحث عن العلاج لنفسه وأصحابه وينصحهم بالتداوي .

فعن أسامة بن شريك قال :

ـ كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب ، فقالوا يارسول الله ، أنتداوى ؟ فقال : « نعم يا عباد الله ، تداووا : فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد . قالوا : ما هو ؟ قال : الهِرَم » (رواه الإمام أحمد) وفي رواية أخرى « إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء : علمه من علمه ، وجهله من جهله »(٨) .

(٦) معينات على الإيمان والشفاء

يقول الله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون** ﴾ (البقرة : ٤٥ ـ ٤٦) .

والصلاة في الإسلام عماد الدين ، وهي كالعبادة : مفهوم شامل لكل ما يصل العبد بربه ، ولها مفهومها الخاص الذي حددته الشريعة :

استعداداً لها (بـالتطهـر والاتجاه إلى القبلة . . .) وأداءهـا في أوقات معينـة ، ولمناسبـات معينـة : (الصلوات الخمس في اليـوم والليلة ، والجمعة ، والعيدين ، ثم صلوات المناسبات كالجنازة والاستسقاء . . . الخ) .

والصلاة « صلة » بين العبد وربه ، كما أنها ـ في الجماعة ـ صلة بين العبد وإخوانه ، وفي أدائها صلة بين أجيال متتابعة ، وأقطار وإن تباعدت . فلها في الإسلام امتدادها التـاريخي ، واتساعهـا المكاني ، وتكاملها مع العبادات الأخرى ، وتلخيصها للإسلام ، مما يجعلها تمس النفس الإنسانية في كل أقطارها ، ويستطيع المسلم أن يؤديها في الإقامة والسفـر ، والسلم والحـرب ، والصحـة والمـرض ، قـائـماً وقـاعـداً ومستلقياً ، وبالإيماء وحركة الجفن . . . وإذا لم يجد المسلم مـاء تيمم صعيداً طيباً .

والصلاة تجمع روح قواعد الإسلام الأخرى :

فيها من الحج التوجه إلى بيت الله .

ومن الصوم الامتناع عن الطعام والشراب .

ومن الزكاة تقديم جزء من الوقت للعبادة . والوقت هو الحياة .

وفيها الشهادتان تكبيراً لله ، وقراءة الفاتحة والقرآن ، والتحيات في الجلوس .

ثم هي عبادة تشترك فيها الجوارح بالحركة ، واللسان بـالقراءة والدعاء ، والقلب بالخشوع ، والفكر بالتدبر .

ثم هي تجمع بين الانعزال عن الحياة والاندماج فيها : انعزال عنها بأداء الصلاة والانشغال بها ، وترك ما يشغل الإنسان من عمل أو تجارة . وفي أثنائها يسمع قراءة القرآن ويدعو ربه . والاستماع تعلُّمٌ وتذكر ، يعود عليه بالنفع في حياته اليومية . وصلاة النهار في السر عندما ترتفع أصوات الناس بالحوار والحديث . وصلاة الليل جهرية عندما يهدأ الناس . وبهذا كان فيها خروج عن مألوف عمله ـ حتى في درجة الصوت ـ ثم عودة إلى الحياة بزاد قلبي وفكري وخلقي أفضل .

ولهذا كان من قول الرسول عليه الصلاة والسلام عن الصلاة

«وجعلت قرة عيني في الصلاة» من حديث رواه أحمد والنسائي عن أنس.

ويستحب للعابد أن يكثر فيها الدعاء وبخاصة في السجود يقول عليه الصلاة والسلام :

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » رواه أبو داود عن أبي هريرة.

ويقول الله عن الصلاة ، وكيف أنها تعين على أمر الحياة : **﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾** (الحجر : ٩٧) .

وعلى هذا المنهج نستطيع أن ندرس العبادات الأخرى ، من حيث

تأثيرها على معنويات الفرد ، وأثر ذلك على التزامه بقواعد الوقاية وطلبه العلاج وصبره عليه ، وهدوء نفسه في ذلك كله .

(٧) محاذير على طريق الإيمان والشفاء

وعند الحديث عن الإيمان ، قد يختلط الأمر عند البعض ، بمعجزات منتظرة ، أو قد يفتح هذا الحديث الباب لدخول شعوذات لا مكان لها في الدين ولا العلم .

صحيح أن الإيمان بالغيب أساسي في الإسلام . والله تعالى يقول في مطلع سورة البقرة : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (البقرة : ٢ - ٤) .

ولكن بمجيء الإسلام ختم الله عهد المعجزات الكونية ، التي تؤكد الدعوة إلى الله ، ليجعل العقل والفكر حكماً بين الناس بأمر الله .

يقول الله تعالى في الآيات الكونية : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كَذّب بها الأولون** ﴾ (الإسراء : ٥٩) .

وفي نفس السورة تعداد للآيات الكونية التي طلبها كفار قريش من النبي عليه الصلاة والسلام تأكيداً لدعوته ، كما جاء بها الأنبياء السابقون . فبين لهم الرسول أن الدعوة الخاتم لها أسلوب مغاير لما سبقها من الدعوات ، وعليهم من الآن إلى يوم الدين ، أن يتخذوا من

كتاب الله ومن العقل نوراً وهدى ؛ ومحمد بشر رسول :

يقول الله تعالى : **﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيتٌ من زخرف ، أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تُنَزِّل علينا كتاباً نقرؤه . قل : سبحان ربي . هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾** (الإسراء : ٩٠ - ٩٣) .

وإذا كان الله قد أيد نبيه بمعجزات كونية كتكثير الطعام أو نبع الماء أو الستر من الأعداء ، فلم تكن هذه المعجزات الحجة الكبرى في نبوته . وإنما المعجزة الكبرى هي القرآن الداعي إلى تحكيم العقل .

وفي القرآن عند دراسة آيات الله في الأنفس والآفاق نقرأ قول الله تعقيباً على ذلك في أكثر من آية ، ولنأخذ خواتيم آيات من سورة «الروم» نموذجاً : **﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾** (٢١) . **﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾** (٢٢) . **﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾** (٢٣) . **﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾** (٢٤) . **﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾** (٢٨) .

ويأتي ختام السورة بقوله تعالى : **﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾** (٦٠) .

ثم يأتي قول الرسول عليه الصلاة والسلام موضحاً مكانة العقل

في الإسلام وأنه طريق الاقناع وأنه الفطرة ، وذلك في قوله : « **ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة .** » (رواه مسلم عن أبي هريرة) .

وأود هنا أن أذكر تلخيص قول الشيخ محمود شلتوت - شيخ الأزهر - في كتابه : الإسلام عقيدة وشريعة تحت عنوان : « السنة تشريع وغير تشريع » :

ينبغي أن يلاحظ أن كل ما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام ودُوِّن في كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته على أقسام :

أحدها : ما سبيله سبيل الحاجة البشرية ، كالأكل والشرب والنوم والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية .

ثانيها : ما سبيله التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية ، كالذي ورد في شئون الزراعة والطب .

ثالثها : ما سبيله التدبير الإنساني أخذاً من الظروف الخاصة كتوزيع الجيوش في الحرب . . واختيار أماكن النزول . .

وكل ما نقل من هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعاً ، يتعلق به طلب الفعل أو الترك ، وإنما هو في الشئون البشرية التي ليس مسلك الرسول ﷺ فيها تشريعاً ولا مصدر تشريع[٩] .

ويتابع الشيخ شلتوت قوله : **والسنة تشريع عام وخاص** .

ويتركز القسم (**الرابع**) **على** : ما كان سبيله التشريع وهو على أقسام :

أولاً : ما يصدر عن الرسول ﷺ على وجه التبليغ بصفة أنه رسول ، كأن يبين مجملاً في الكتاب ، أو يخصص عاماً . . أو الحلال والحرام . . فهذا تشريع عام إلى يوم القيامة .

ثانياً : ما يصدر عنه بوصف الإمامة والرياسة العامة لجماعة المسلمين : كبعث الجيوش ، وصرف أموال بيت المال . . وحكم هذا أنه ليس تشريعاً عاماً ، فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام .

ثالثاً : ما يصدر عنه بوصف القضاء . . وحكم هذا كسابقه ، ليس تشريعاً عاماً ، حتى يجوز لأي إنسان أن يقدم عليه بناء على قضائه به . . فليس له أن يأخذ حقه إلا بحكم الحاكم .

ويختم هذه الدراسة بقاعدة لها أهميتها الكبيرة في بحثنا هذا فيقول : « هذا ومن المفيد جداً معرفة الجهة التي صدر عنها التصرف ، وكثيراً ما تخفي فيما ينقل عنه ﷺ ولا ينظر فيه إلا من جهة أن الرسول فعله أو قاله أو أقرّه ، ومن هنا نجد أن كثيراً مما نقل عنه ﷺ صُوِّر بأنه شرع أودين ، وسنة أو مندوب ، وهو لم يكن في الحقيقة صادراً على وجه التشريع أصلاً . وقد كثر ذلك في الأفعال الصادرة عنه ﷺ بصفة البشرية ، أو بصفة العادة والتجارب . ونجد أيضاً أن ما صدر على وجه الإمامة أو

القضاء ، قد يؤخذ على أنه تشريع عام . ومن ذلك تضطرب الأحكام وتختلط الجهات . وقد تكون معرفة الجهة فيما ينقل من كل ذلك واضحة جلية ، فيتقيد كل فعل بالجهة التي صدر عنها » .

آثرت أن أذكر هذا النص من الدراسة المستفيضة التي خصصها الشيخ محمود شلتوت عن السنة . . كمصدر للتشريع(١٠) لكثرة ما ورد من حوار حول مدى التطبيق العملي لما جاء من أحاديث في موضوع الطب النبوي ، وتحديد الجهة التي صدر عنها التصرف : جهة الرسالة ، أو الإمامة ، أو القضاء ، أو ما جاء من الشئون البشرية ، وليس شرعاً ، يتعلق به طلب الفعل والترك .

(٨) مقترحات عملية

وتعنينا الخطوط التي سبق توضيحها على تحديد أسلوب النظر فيما جاء عن الطب في مصادر التشريع الإسلامي وتراثه الحضاري وفيما يحسن أن تتجه إليه اهتماماتنا في العلاقة بين الإيمان والشفاء .

كان الهدف الأساسي لهذا البحث التمهيد لإنشاء مكتبة تكون قريبة من يد المسلم وبخاصة وقت المرض ، تعني أولاً بالطب الوقائي وتربطه بمصادره الإسلامية . وأقصد الطب الوقائي في أوسع مدلولاته التي تشمل الجسم والنفس والفكر . . والطب العلاجي أيضاً في أوسع مدلولاته : أمراض الجسم والنفس والانحراف الأخلاقي والفكري . وتجمع موضوعاتها بين الأصول التشريعية ، والمناهج العملية

والتطبيقات من التراث .

وتتفرع منها فروع للأطفال والشباب والكهول : مقروءة ومسموعة ومرئية . .

ومن الممكن أن تكون مجال حوار حول تطوير قضايا الطب في المفهوم الإسلامي الذي يجمع بين العقيدة والأخلاق والتقدم العلمي ، وتعين الجيل الجديد على أن يُحْسِن الإفادة من التراث ويضيف إليه .

وما أتصور أن تقتصر النماذج الإنسانية التي نعرضها من التراث ، على ما فيه من روائع عالية ؛ فإن هذه قد تشعر الإنسان العادي بالضعف حين يحاول قياس نفسه بها ، وإنما تُعني أيضاً بالممارسات اليومية وحياة أوساط الناس الذين يشعر المريض أنه منهم قريب ، ومن الممكن له الاقتداء والتأسي بهم . وهذا الخطأ يقع فيه بعض كتاب تاريخنا حين يقتصرون على « المناقب » دون عرض موضوعي متكامل للحياة ، كما يحياها أوساط الناس .

وكنموذج أذكر القصة التالية :

دعتني هيئة اليونسكو لإلقاء محاضرة مقرها بباريس في ٢٦ نوفمبر ١٩٨١ عن « الثقافة والدين » .

وكان ممن لقيت صديق عربي مسلم أمضى سنين طويلة في العمل هناك ، وفي لقاء عائلي مع أهله عرفني بهم : هذه ابنتي نجوى وهذه

فدوى . . ودار الحديث عن الأسماء . . فقال الأولى : جاءت استجابة لدعائنا ، أنا وأمها ، أن يرزقنا الله ذرية تملأ علينا البيت حياة . والثانية لها قصة :

فعندما اقترب موعد الوضع ذهبنا إلى المستشفى الذي يشرف طبيبه على رعاية أمها . وبعد الكشف بدا على الطبيب انزعاج وقال : الاحتمال ضئيل في إخراج الجنين حياً !! وأعاد الكشف بعد قليل ومعه من يشاوره ثم قال : قد نضطر إلى تقطيع الجنين . .

واشتد انزعاج الأم وانزعاجي . وقلت للطبيب : هل لك أن تتركنا معاً بعض الوقت .

ونظر إلينا متعجباً ، وقال : أسرعوا .

تركنا الطبيب وحدنا ، ونظر كُلٌّ منا إلى صاحبه ، ثم استغرقنا في دعاء الله وتلاوة القرآن الكريم . ذكرت لزوجتي حياتنا على الطهر والإيمان في البلد النازح ، صلواتنا نؤديها، معاملاتنا طاهرة وعلى الخير . . وتوجهنا معاً إلى الله دعاءً اختفت فيه الكلمات وراء التوجه إلى الله بأسمائه الحسنى ، ودعائه بما جاء في كتابه . .

وأسلمنا الأمر لله . وهدأت نفوسنا . وأحسسنا سكينة تملأ القلب .

والسكينة، ما جاءت في القرآن الكريم،إلا تفضلاً من الله على عباده ، هو الذي ينزلها عليهم رحمة منه وعونا .

وعاد الطبيب ، ونظر إلينا ، كأنه ينظر إلى آخرين لم يكـونوا في الحجرة . وأعاد الكشف . وعلى وجه زوجتي ووجهي اطمئنان وتسليم لله . . ثم قال :

الموقف تغير الآن . . احتمال حياة الجنين أكبر .

ودخلت زوجتي غـرفة الـولادة . وأكـرمنـا الله وجـاءت ابنتنـا وسميناها فدوى .

ولازلت أذكر أن الطبيب الفرنسي قال لنا :
« لا أدري ماذا حدث في هذه الفترة التي تركتكما فيها معاً !! ولو لم أره لم أكن أصدقه !! » .

هذا الجانب من الإيمـان بالله ، وحسن التـوجه إليـه ، وصدق اليقين فيه ، هو من ثمار الإيمان بالله ، التي تكون على الشفاء عوناً . . لأنها في ذاتها شفاء للنفس .

وقبل أن أدع القلم أود أن أذكر كلمة عن :

(٩) الدعوة والشفاء

وأقصد بالدعوة : العمل من أجل عقيدة محددة . كـأن ينطلق المسلم إلى العمل بوحي من عقيدته ، وكذلك المسيحي .

وليست هناك مشكلات إذا كان العاملـون في حقل « الشفاء » لا

يحاولون استغلال أوضاعهم فيه لنشر عقيدة معينة .

ولقد عانى العالم الإسلامي كثيراً من موجات التبشير ـ وخاصة من بعض الكنائس المسيحية ـ التي جاءت إلى دياره باسم العمل الإنساني العام ، واستطاعت أن تحول قطاعات من أرضه وأهله ، وبخاصة من محدودي الثقافة ، ومن الذين يعيشون تحت ضغوط الفقر والمرض والجهل ـ استطاعت أن تحولهم من الإسلام الى اعتناق المذهب المسيحي الذي تمثله هذه الكنيسة أو تلك .

وانتشرت هذه الكنائس في أفريقيا المدارية وفي جنوب آسيا بخاصة ، ومن ورائها دعم علمي ومادي وتقني ، يصل إليها بانتظام من بعض عواصم العالم الغربي . ولهذه الكنائس مستشفياتها ومدارسها ومعاهدها المهنية وسياراتها بل ومطاراتها الخاصة التي تستطيع أن تحمل الفكر والتبشير والدواء إلى أعماق الغابات الاستوائية ، ثم تحمل أبناءها بعد تحويلهم إلى المسيحية في بعثات إلى العالم الغربي ، ليعودوا بعد هذا إلى أقطارهم كقيادات علمية وسياسية واقتصادية ، تتولى متابعة ما بدأه المبشرون .

وفي موضوعنا هذا يهمنا الأسلوب الذي يرتبط فيه الشفاء بأسلوب وجَوِّ العلاج ، ثم ربط هذا كله عن طريق المعاملة ـ وأحياناً دون كلام ـ بالعقيدة التي يؤمن بها من أقاموا المستشفى .

ولازلنا ـ نحن المسلمين ـ في هذا ، محتاجين إلى عناية وجهد

كبيرين ، حتى يصبح أسلوب العلاج صورة حيـة للعقيدة الإسـلامية ابتداء من دخول المريض المستشفى حتى مغادرته، وقد استـرد الجسم صحته ، وامتلأت النفس حباً للذين أعانوه على أمره ، وشكراً لله الذي أجرى له الخير على أيديهم .

كل هذه مشروعات لا تكفي فيها جهود حكومية ، وإنما تتكاتف من أجلها جهود مؤسسات شعبية ، تتعاون جميعاً لتجعل الإيمان دافعاً إلى الصحة والشفاء ، وتجعل من العمل من أجل الصحة والشفاء تعبيراً عملياً وعلمياً عن الإيمان .

المراجـع

(١) القرآن الكريم هو المرجع الأساسي لهذه الدراسة :

1. C.G. JUNG, Answer to Job. see: The Collected Works of C.G. JUNG, Vol.11, Psychology and Religion West and East, P.365. Routledge and Kegan Paul, London, 1969.

وفي هذه الدراسة يعرض يونج لسفر أيوب من العهد القديم ، في نظرة عن العلاقة بين الخالق والإنسان . وهي نظرة يعترف أنها ذاتية ، وكأنها حوار حُرٌّ بين الخالق والمخلوق .

(٢) كنموذج : راجع العهد الجديد : رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٥ : ١٨ « فإذا كان بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة ، هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة » .

(٣) هناك دراسة وافية لهذا الشرح والتحليل لقصة آدم في الكتاب الآتي :

محمد إقبال : تجديد الفكر الديني في الإسلام ـ الفصل الثالث عن الألوهية ومعنى الصلاة ص ٩٦ ـ ١٠٣ الترجمة العربية ط . القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨م .

(٤) العهد القديم : سفر التكوين . ٣ : ١٤ ـ ١٩ عن قصة آدم وحواء والحية . . « وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك » وخاطب آدم قائلاً « ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك . . . » .

وفي نفس السفر ٩ : ٢٠ ـ ٢٧ ترد قصة نوح وأبنائه وكيف شرب نوح ـ كما في القصة ـ خمراً ، وانكشف جسمه . وتحل اللعنة على ولد لم يشهد الموقف هو كنعان بن يافث : «ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لاخوته . وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم » .

(٥) انظر : تفسير الطبري في شرح أوائل سورة الإسراء : ١٥ : ٣ ـ ٥ جاء في حديث أنس بن مالك . . . « فوجد في السماء الدنيا آدم . فقال له جبرئيل : هذا أبوك ، فسلم عليه ، فرد عليه ، فقال : مرحباً بك وأهلاً يابني ، فنعم الابن أنت ثم مضى به إلى السماء الثانية . . . » .

ط . الحلبي ـ القاهرة .

(٦) في مفهوم المرض والوقاية والشفاء أنظر :
ابن القيم : الطب النبوي في ١ ـ ١٨ .
تحقيق د. عادل الأزهري ، تخريج : محمود فرج العقدة .
ط . دار الكتب العلمية . بيروت .
والكتاب من أمتع الكتب في موضوعه ويعرض للجوانب النفسية والأخلاقية والجسمية : مرضاً ووقايةً وعلاجاً . وألحق به المؤلف فصلاً عن الأدوية والأغذية المفردة التي جاءت على لسان النبي ﷺ مرتبة على حروف المعجم من ص ٢١٨ ـ ٣٢٦ .

(٧) أنظر : العهد الجديد : أعمال الرسل ٢٣ : ٦ ـ ٩ عن الحوار بين بولس الرسول وحنانيا رئيس الكهنة . . .
« ولما علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون والآخر فريسيون صرخ في المجمع : أيها الإخوة أنا فريسي ابن فريسي . على رجاء قيامة الأموات أحاكم . ولما قال هذا حدثت منازعة بين الفريسيين والصدوقيين ، وانشقت الجماعة ، لأن الصدوقيين يقولون أنه ليس قيامة ولا ملاك ولا روح ، وأما الفريسيون فيقرون بكل ذلك » وهذا في داخل دين واحد هو اليهودية .

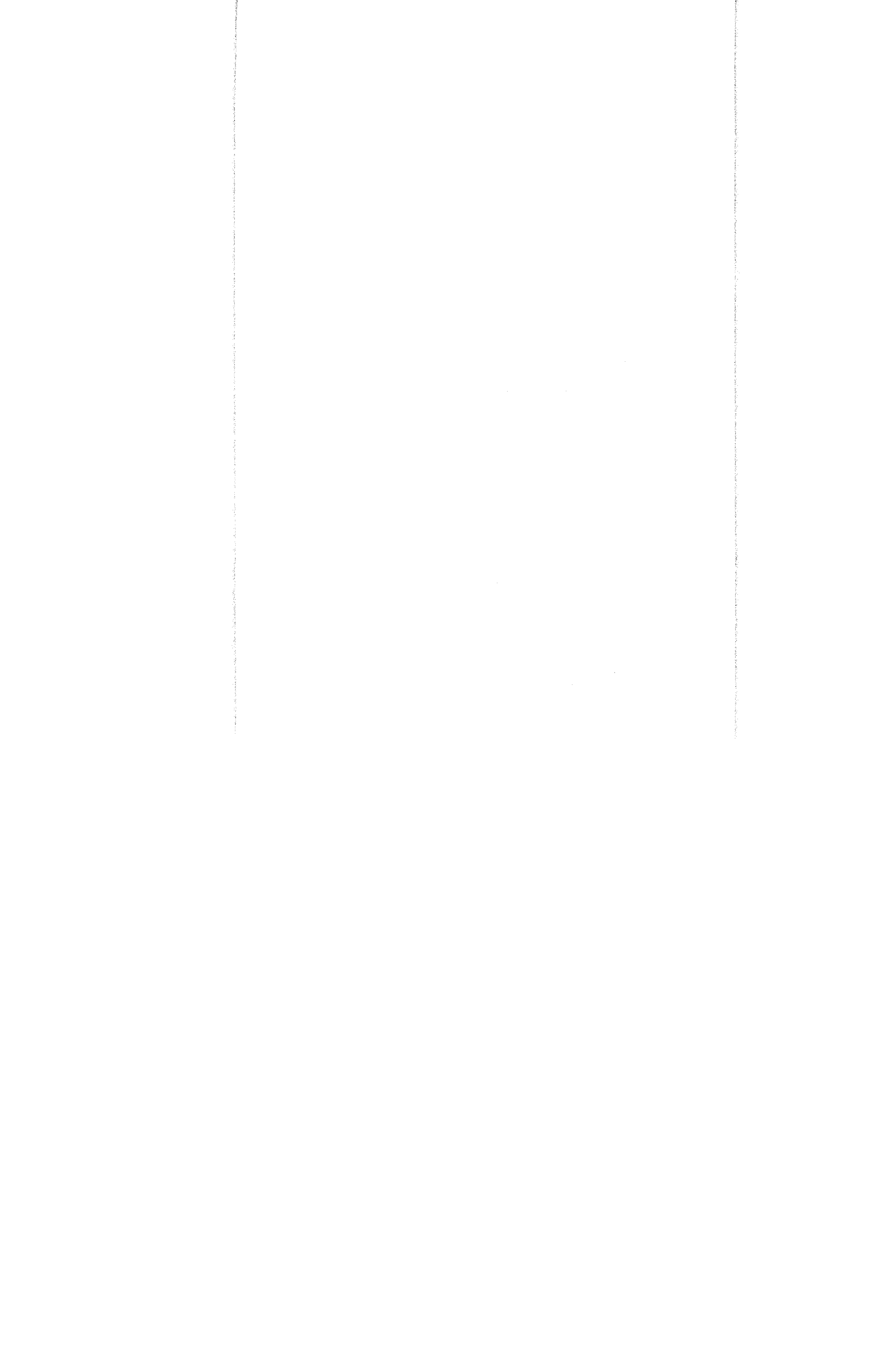
(٨) ابن القيم : الطب النبوي . المرجع السابق ص ٨ ـ ٩ .

(٩) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة :
ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ الطبعة العاشرة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م دار الشروق ـ القاهرة .

(١٠) محمود شلتوت : نفس المرجع : الباب الثاني بعنوان « السنة » من ص ٤٩٠ إلى ص ٥٣٩ والثالث ـ بعنوان ـ أسباب اختلاف الأئمه في فقه القرآن والسنة : ص ٥٠٦ ـ ٥٥٠ .

المحاضرة الثانية

الطب في الإسلام
بين التشريع والممارسة والتخطيط



الطب في الإسلام بين التشريع والممارسة والتخطيط

ملخص

١ ـ تحية تركيا واستانبول حيث يلتقي في خط سمائها الإيمان والعلم والتخطيط، وتبدو عبقرية خوجة معمار سنان.

٢ ـ الصحوة الثانية المعاصرة في العالم الإسلامي، وتصحيح هذا المفهوم ووضعه في سياقه التاريخي، مع الإشارة إلى الصحوات السابقة التي جاءت رفضا للهزيمة، واصراراً على البناء الجديد، ومن أوضح أمثلتها عصر الموسوعات بعد سقوط بغداد. وضرورة إعادة تأريخ الحضارة الإسلامية ـ والطب جزء منها ـ وتوفير الحصانة العلمية اللازمة للابداع العلمي.

٣ ـ إن موقف الطب تشريعاً وممارسة وتخطيطا ينبع من أصل أساسي: هو الإيمان بكرامة الإنسان. وهو أمر أكده القرآن الكريم والسنة المطهرة.

٤ ـ وفي التشريع يناقش البحث أحاديث شريفة وما جاء فيها من مشكل، كأحاديث العدوى، ليؤكد الموقف الإيجابي التشريعي في التداوي .

٥ ـ وينتقل البحث إلى الممارسة ، ويذكر نماذج من عهد النبوة وصدر الإسلام وازدهاره، سيراً إلى العهد العثماني، ودوره في التأليف الطبي والممارسات، وبخاصة التطعيم. وانتقال ذلك من تركيا إلى أوربا وأثر ذلك على إنقاذ آلاف الأرواح من فتك الأوبئة.

٦ ـ يعرض البحث بعد هذا للتخطيط، والعلاقة بين الطب الوقائي والعلاجي. ويذكر آفاقاً خمسة لتخطيط البحوث وهي :

الأول : مزيد من العناية بالتراث الطبي في أرض الإسلام .

الثاني : العناية بالطب التقليدي في مهاد الحضارات القديمة .

الثالث : الاتصال المنتظم بمراكز البحوث المتقدمة المعاصرة .

الرابعة : دعم الحوار بين رجال الطب ورجال الشريعة الإسلامية والأخلاق، وهو حوار بدأ فعلا على الصعيدين الإسلامي والعالمي .

الخامس : الدراسات الميدانية المباشرة .

٧ ـ يختم البحث بذكر آفاق من التعاون العالمي والإسلامي، وتطور النظرة إلى العلم بعد التفجير الذري عام ١٩٤٥ ، ويذكر أمثلة من المشروعات التي يحتاج إليها العالم الإسلامي، ومن أبرزها مقاومة التصحر والجفاف في غرب إفريقيا، ووضع أطلس الخدمات في العالم الإسلامي، وفي مقدمتها الصحة والتعليم ، والمشكلات الطبية الأخلاقية كهندسة الإنجاب إسلامياً وعالمياً .

الطب في الإسلام بين
التشريع والممارسة والتخطيط *

(١) تحية

يسعدني أن أضم صوتي إلى أصوات سبقت إلى هذا المنبر ، وأصوات تتعاقب عليه في شكر تركيا رئيساً وحكومة وشعباً أن استضافت هذا المؤتمر الإسلامي الطبي الكبير .

ومن حق مدينة استانبول ونحن نلتقي في رحابها ، أن نربط مجدها العريق بما نحن بسبيله من تعاون على بناء حاضر ومستقبل .

وفي زيارتي لهذه المدينة تسبق إلى ذهني ثلاثة جوانب من تراثها : الإيمان والعلم والتخطيط .

فلقد استمرت محاولات المسلمين ثمانية قرون حتى تمكن السلطان محمد الفاتح من فتح أبواب القسطنطينية عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)

(*) ألقيت في المؤتمر الثالث للطب الإسلامي بجمهورية تركيا في الفترة ما بين ٢٨ سبتمبر ـ ٢ اكتوبر ١٩٨٤ ونشر في كتاب المؤتمر العالمي الثالث للطب الأسلامي .

وتمثلت عبقرية هذا السلطان الشاب في أنه استطاع لأول مرة أن يجمع بين عمق العقيدة وارتفاع المستوى العلمي القادر على التغلب على حصون المدينة وأسوارها ، فالتقت تحت قيادته القوتان : الإيمان والعلم .

ولم يكن الإيمان ينقص المحاولات السابقة ، ولكن ينقصها المستوى العلمي القادر على التحدي والانتصار .

ويأتي العنصر الثالث وهو التخطيط : وأراه واضحا في خط السماء في استانبول ويبرز فيه اسم عبقري العمارة خوجه سنان وهو عبقري بأي مستوى وضعته فيه : بين قومه الأتراك ، وبين أهل عقيدته المسلمين ، وبين أصحاب تخصصه من عظماء العمارة في العالم .

واستطاع سنان في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أن يضع اللمسات الأساسية في خط السماء في استانبول ، وأن يمد تأثيره على العمارة التركية والإنشاءات الدينية والمدنية في أكثر من قطر من أقطار الدولة العثمانية .

وإذا كان سنان قد اختار ثلاثة مساجد لتمثل مراحل تطوره وهي :

شاه زاده وسليمانية في استانبول وسليمية في أدرنه ، فإن هذه المساجد لقاء بين الإيمان والعلم والتخطيط معاً .

ولازلنا حتى الآن حين ننظر إلى خط السماء في استانبول وحين

نشرف على أدرنه ، وعلى أكثر من مدينة في تركيا ، نحس أن عبقرية سنان وزملائه ترحب بنا ، بعد أن بارح دنيانا في عام (٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م) ترحيبا تعبر عنه هذه الكلمات الثلاث : الإيمان العلم التخطيط .

(٢) الصحوة الثانية

نحن نعيش مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري ما اصطلحنا على تسميته بالصحوة الإسلامية الثانية . وقد انتشر استخدام هذا المصطلح في كل من العالم الإسلامي والدوائر العلمية في خارجه .

وقد يكون في هذه التسمية شيء من التجاوز أو الظلم لجهود إسلامية سابقة .

نتفق على أننا نعيش صحوة ، ولكنها ليست الثانية ، فلقد تعثر العالم الإسلامي بعد اليقظة الأولى التي شملت عهود الخلافة الراشدة والأمويين والعباسيين ، وسيظل سقوط بغداد (عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) يمثل زلزالا كبيرا في تاريخ الحضارة الإسلامية .

ولكن عند هذا الزلزال ومقدماته وآثاره لنا وقفة وثيقة الارتباط برصيد الحضارة الإسلامية وتاريخها . والطب جزء منها .

وسأترك بغداد مؤقتاً لأتحدث عن القسطنطينية .

الغـرب يتحـدث عن عـام ١٤٥٣م : بـأنـه عـام « سقـوط القسطنطينية » . ومؤرخو الإسلام يتحدثون عن « محمد الفاتح » وعن « فتح القسطنطينية » وكيف غاب الاسم القديم ليبرز اسم استانبول .

ونقرأ في كتب الحضارة عن تأثير سقوط القسطنطينية عـلى قيام عصر النهضة في أوروبا ، وأن هجرة العلماء منها كانت من الأسباب التي أدت إلى انطلاق الفكر الأوروبي ونهضته ، وأن سقوط الدولة البيزنطية كان يحمل بذور العهد الجديد والنور الجديد .

بهذا الربط سرعان ما يتجدد الأمل في نفس الشاب الأوروبي وهو يقرأ تاريخه : فبعد الهزيمة نصر ، وبعد الظلام نور ، وتغيب الأحزان لتخلي المكان والصدارة للآمال المرتقبة والتطلع إلى مستقبل أفضل .

وغير هذا نقرؤه عند مؤرخي الحضارة الإسلامية . نقرأ مـراثي سقوط بغداد ، ومراثي الانسحاب من الأندلس بعد سقـوط غرنـاطة (عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) . ولا نربطها كثيـرا بما حـدث بعدهـا من صحوة ومن جهود علمية رافضة للهزيمة .

أما في مجال الطب فقد استطاعت بغداد أن تستقطب منذ ازدهارها في العهد العباسي الأول ، شخصيـات تألقت فيهـا ممارسـة وإبداعـاً علمياً .

— عـلي بن ربَّن الطبـري مؤلف « فردوس الحكمـة » وهو أول كتـاب إسلامي منظم في الطب (المتوفى نحو ٢٤٧ هـ/ ٨٦١م).

ـ محمد بن زكريا الرازي (المتوفي عام ٣١٣هـ/ ٩٢٥م) صاحب موسوعة الحاوي ، التي تقوم على ملاحظاته الشخصية في فحص المرضى وعلاجهم ، وكتابه المنصوري والمعرفة به واسعة في الغرب .

ـ علي بن العباس المجوسي (المتوفي عام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) مؤلف « كامل الصناعة » ويعرف أيضاً باسم الكتاب الملكي .

ـ أما ابن سينا (وتوفي عام ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) فقد عاش طول حياته في فارس ، وهو بحق فيلسوف العلماء وعالم الفلاسفة ، ولعل كتابه « القانون في الطب » أبرز ما كتب عالم فرد في تاريخ الطب .

وفي ذات الوقت كانت شمس العلم الإسلامي تشرق في أقصى الغرب :

فقد عاش في ديار الأندلس أعظم جراح في تاريخ الطب الإسلامي ، وهو أبو القاسم الزهراوي صاحب « كتاب التصريف » . (وتوفى ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م)

وليس هذا مجال استقصاء[1] ولكن أذكر هذا لأحدد به نمطاً كانت به دار الخلافة أكبر المراكز العلمية ، وأقدرها على اجتذاب العلماء ومن بينهم رجال الطب ، وفي فلكها تدور عواصم أخرى لها علماؤها ، ولم تخل ديار الإسلام ، حيث قامت الدول المستقلة عن الخلافة، من أعلام آخرين تركوا أثراً باقياً في تاريخ الطب الإسلامي .

وعندما سقطت الخلافة العباسية زاد إحساس العواصم الإسلامية

الأخرى بالمسئولية ، وحاولوا تعويض ما فقدته الحضارة الإسلامية بعد تدمير مكتباتها وتشريد علمائها وتخريب مؤسساتها ، واندفع العلماء في رفض عنيد للهزيمة إلى عصر الموسوعات ، وأخذوا يجمعون ما استطاعوا من التراث ، وقد هاجر منهم ومن التجار وأصحاب الحرف من استطاع الهجرة إلى ديار الشام ومصر ، وإلى عالم المحيط الهندي وجزائره في الملايو وأندونيسيا وما وراءها إلى الفلبين الحالية ، وبقي منهم نفر في الأرض المحترقة واستطاعوا أن ينبتوا أجيالا جديدة من العلماء في الدول الإسلامية الجديدة ، التي قامت بعد أن هدأ الإعصار المغولي ، وتحولت العاصفة إلى مياه جارية تروي أرضاً وتثمر زرعاً[٢] .

ولنذكر بعض عناوين الموسوعات الكبرى التي لحقت سقوط بغداد ، وميزت طبيعة هذه المرحلة في التأليف .

ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) .

ـ نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) .

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) .

ومن القواميس اللغوية الكبرى :

ـ لسان العرب لابن منظور الأفريقي (٧١١هـ/ ١٣١١م) .

في المجال الطبي أدت هجرة العلماء إلى ازدهار الأنشطة الطبية في الشام ومصر ، وهي هجرة إذ اشتدت بعد سقوط بغداد فقد كانت

بوادرها منذ العهد العباسي الثاني وغياب الخلفاء العظام .

ـ ألف ابن أبي أصيبعة « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) .

ـ قام قطب الدين الشيرازي (٧١٠هـ/ ١٣١١م) بشرح كتاب القانون لابن سينا ،ويعتبر كتابه « التحفة السعدية » أدق شروح القانون وأعمقها .

ـ مارس علاء الدين بن النفيس (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) نشاطه في كل من الشام ومصر وهو الملقب بابن سينا الثاني ، وهو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وقد عاد إليه حقه العلمي واعتبر السلف الحقيقي لوليم هارفي . ولابن النفيس موسوعة طبية باسم « الشامل في الصناعة الطبية » .

وظهرت مراكز طبية وازدهرت في المغرب وفارس والهند .

وفي الجزء التركي من العالم العثماني برزت أسماء طبية ممتازة في المجال الطبي :

ـ حجي باشا خضر الايبديني (في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) .

ـ محمد الكوزوني طبيب سليمان الأول وسليم الثاني (في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) .

ـ داود الأنطاكي وهو من أنبغ الشخصيات المتأخرة في تاريخ علوم الإسلام وكتابه « التذكرة » من أهم وأوسع المراجع الطبية انتشاراً في هذه الفترة الأخيرة[٣].

وإذا كان نفوذ الطب الغربي قد وصل إلى أكثر ديار الإسلام ، فلازالت بعض الأقطار محافظة على تراثها الإسلامي في شبه القارة ، حيث الهند وباكستان وبنجلادش مع إفادتها من الطب الغربي .

إن المحافظة على التراث الطبي الإسلامي أخذت تكسب أرضاً جديدة حتى في ديار الغرب نفسها ، وأصبحت إعادة النظر في هذا التراث بخاصة ، والتراث التقليدي بعامة، جزءاً من الاهتمامات الإسلامية والوطنية والعالمية الآن .

يبدو من هذا أنه بين الصحوة الأولى ، وما أطلق عليه الصحوة الثانية حدثت عدة صحوات ، وقامت دول جديدة بعضها فوق أرض احتفظ بها الإسلام ، وبعضها فوق أرض كسبها ، وبعضها فوق أرض استردها ، وبرزت أهمية مدن وعواصم بعضها قديم ، والبعض جديد ، ولعلماء الإسلام في هذا كله عطاء وحركة وتواصل مستمر .

بعبارة أخرى نستطيع القول : إنه رغم الخسارة التي لحقت بالحضارة الإسلامية بعد الإعصار المغولي من الشرق ، ورغم الخسائر والجهود التي استنزفها الإعصار الغربي الذي تمثله الحروب الصليبية ، بل بسبب هذه التحديات ، فقد انبعث من احتكاكها وهج نهضة جديدة

ودورات من العطاء تحتاج إلى تأريخ جديد للحضارة الإسلامية ، يعني بتسجيل مقاومة روح الهزيمة العلمية ، والعناية بالتأليف ، وحفظ التراث والإضافة إليه ، وتخريج الأجيال الجديدة من الباحثين . هي دورات لها قمم وقيعان تتباين أبعادها ، ولكن فيها استمرار الحياة والإصرار على البقاء .

وفي نفس الوقت نحن لا نريد أن نغض الطرف عن الاستنزاف الإسلامي الداخلي ، وما شجر بين دول الإسلام من حروب ، والنيران التي لا تزال مشتعلة ، تأتي على زهرة الشباب ، وعلى أرصدة المستقبل ، بل علينا أن نبين تأثيرها السلبي على المسار الإسلامي .

وعلينا بقدر ما نستطيع أن نوسع دوائر التعاون ، وأن نضيق دوائر الخلاف والنزاع . وليكن مما ننادي به أن نحفظ جهود العلم بعيدة عن الصراعات الداخلية ، وأن تكون لرجال العلم ومعاهده وأجياله « حصانة » تمكنهم من القيام بمسئولياتهم ، ومن بينها أن يقوموا بأنفسهم بكتابة تاريخ حضارتهم ، والطب جزء منها .

ولعل أن يكون هذا فيما نتواصى به في هذا اللقاء مع تنسيق الجهود التي تقوم بها أكثر من هيئة علمية في العالم الإسلامي ، وهي جهود لا زال فيها تشابه وتداخل وتكرار .

(٣) الطب بين الشريعة والممارسة

ترتبط العلاقة بين الشريعة والممارسة بنظرة الإسلام إلى الإنسان ، يقول الله تعالى ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم** ﴾[٤] والإنسان هو خليفة الله في أرضه : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[٥] ومن أجله خلق الله الوجود وأكرمه بالحواس والفكر .

﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا** ﴾[٦] .

﴿ **قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون** ﴾[٧] .

ولقد ذكر فقهاؤنا أن مقاصد التشريع الضرورية خمسة هي : حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل . ويقول الإمام الشاطبي عن هذه الخمسة لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا ، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة ، وفي الأخرى (أي يوم الحساب) فوت النجاة والنعيم ، والحفظ لها (أي للمقاصد الخمسة) يكون بأمرين : ما يقيم أركانها وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود ، والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها .

وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم[٨] .

ويلحق بهذه الضروريات مستوى يعين على تحقيقها يسميه الشاطبي « الحاجيات » ، ومن دونه مستوى ثالث يسميه « التحسينات » وهي الأخذ بمحاسن العادات .

فإذا كانت الضروريات الخمس أساساً ، فالحاجيات عون ، والتحسينات جمال في الأداء ، وهي جميعاً بتقسيمها الخماسي والثلاثي ، أي الأفقي والرأسي ، تدور حول محور واحد هو كرامة الإنسان . ومن هذه الكرامة تنبع العناية بالإنسان في صحته ومرضه : الصحة بمفهومها الشامل جسميا ونفسيا وروحيا ، والمرض بمفهومه الشامل أيضا الذي يضم هذه الجوانب، ويستوي فيه أن يكون المرض الذي أصيب به الإنسان من عمل يده، أو أصابه دون حول منه ولا قوة .

(٤) الموقف من المريض

وارتبط بهذا أيضاً موقف الإسلام ـ كدين ـ من المريض ، فرعايته بين أهله ، من صحبة المعروف والتقوى التي نقرؤها في قول الله تعالى **﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾**[٩] وقوله **﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾**[١٠] ومن تمام الإحسان وصلة الرحم رعاية المريض من الأهل ، وهو حق مضاف إلى حقه الأول كإنسان .

إن الرعاية بالنسبة إلى المجتمع فرض كفاية ، إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين . ولا فرق في الإسلام بين حاجة الفرد إلى الطعام والشراب وحاجته إلى العلاج ، وفي حياتنا المعاصرة التي تحمل فيها الدولة المسئولية مع أجهزة الحكم المحلي والمؤسسات التي أقامها أصحابها للخير ، أصبح تخطيط الرعاية الصحية مسئولية منظمة ، تتحول فيها

المبادرات الفردية والجماعية إلى قنوات خدمات تتكامل مع ما تقوم به الأجهزة الحكومية .

(٥) الموقف من المرض

والمرض في الإسلام انحراف عن الصحة ، والرسول ﷺ ينصحنا بقوله (تداووا عباد الله فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير داء واحد هو الهرم)[١١] .

ولا نلقي في الإسلام أي أساس لموقف سلبي من المرض ، فعلى الإنسان أن يحفظ صحته ، وأن يلتمس سبل الشفاء إذا مرض ، وعلى المجتمع أن ييسر له ذلك ما استطاع إليه سبيلا .

ولا نلقي في الإسلام موقفاً عدوانياً على مريض ، كما كان يحدث لضعاف العقول في أوروبا في العصور الوسطى ، عندما نسبوا ضعف العقل أو الجنون إلى الأرواح الشريرة .

والجذر اللغوي لهذه الكلمة وهو « ج ن ن » لا يدل على فقد ، وإنما يدل على استتار أو حجب فقط ، ومنه المجن الذي يستر المحارب ، والجنة أي الحديقة لأن أشجارها تستر من فيها ، والستر يقتضي الوجود كأنه عقل إنسان في الجنون مستور ، وإذا استطعنا رفع الستار عاد إلى الظهور[١٢] .

وموقف المريض من مرضه ، مادام يعقل ، هو التحمل والصبر

والسعي إلى العلاج .

إن المرض في الإسلام اختبار من الله ، يقول النبي عليه الصلاة والسلام : (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر الله به سيئاته)[١٣].

وبهذا كان تحمل الألم عبادة ، وهو يشيع في النفس قدراً من السكينة تعين المريض على عبور مرحلة الألم ، وتعين طبيبه على العلاج في نفس الوقت ، وتراثنا القديم والحديث زاخر بمواقف الصالحين من المرض صبرا عليه وتحملا ، وسعياً إلى العلاج إن استطاعوا ، ورضى به إذا كان فوق طاقة الطب والعلاج[١٤].

وكان هذا التعاون بين المريض والطبيب والمجتمع يتم في جو من المودة والرعاية المتكاملة (جسمياً ونفسياً وإعداداً للحياة العامة) تشهد به المستشفيات التي أنشئت في دورات الازدهار الإسلامي في كثير من عواصمه .

(٦) مناقشة لبعض مشكلات الأحاديث النبوية في الطب

ومع هذا الخط العريض في طلب الدواء والشفاء دارت مناقشات حول أحاديث شريفة من أبرزها قوله عليه الصلاة والسلام : (لا عدوى)[١٥].

هذا مع أحاديث أخرى توصي باجتناب المرض ، وأحاديث تحث

على رعاية المريض .

وبهذا تبدو الصورة العملية : وفيها اقتراب من المرض والمريض لعلاجه ، وحذر من العدوى ، وإبعاد للأصحاء عن المريض ووقاية لهم .

وكل موقف من هذه المواقف يتلاءم مع حديث أو أكثر للنبي عليه الصلاة والسلام .

أ - بعض علمائنا قالوا إن أحاديث الطب ليست تشريعاً وإنما هي تمثل خبرة العصر(١٦) ولو كانت تشريعا لكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصف بنفسه الدواء لكل ما يعرض له . ولكنه كان يصف أحياناً، وكان يوصي بأن يسألوا بعض المختصين : فعندما مرض سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عاده رسول الله ﷺ فقال (ادعوا له الحارث بن كلدة فإنه يتطبب)(١٧) .

ب - والبعض ذكر أن حديث لا عدوى كان يحدث به أبو هريرة صاحب رسول الله ﷺ ، ثم سكت عن التحديث به .

جـ - والبعض اتجه إلى التوفيق بين هذه الأحاديث ، وأن كلا منها كان لهدف وظرف ومستوى من الإيمان ، ولن نطيل الوقوف عند هذا الحوار ، ونستطيع أن نرجع إليه في مراجعه كتهذيب الآثار للطبري وزاد المعاد لابن القيم(١٨) .

ذلك لأن الممارسة الإسلامية كانت هي التمـاس العلاج لكـل مرض ، وتجنب العدوى ، مع رعاية المرضى والعناية بهم ، واعتبار هذا كله مسئولية دينية واجتماعية في آن واحد ، وهي في المصطلح الإسلامي عبادة ، ذلك لأن العبادة قصد الله في كل خير يقدم في المجتمع ، سواء قدمه الفرد إلى نفسه أو أهله أو المجتمع الكبير .

وعندنا مثال قريب من تركيا :

فعندما كان الجدري يفتك بالشعوب الأوروبية في القرن الثامن عشر كانت الدولة العثمانية تمارس التطعيم ، وقد كتبت السيدة ماري منتاجو زوجة السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية ما لاحظته عندما زارت أدرنه عام ١٧١٧ فوجدت الجدري خفيف الوطأة في الشرق ، وسألت عن السبب فعرفت أنه التطعيم . واقتنعت بفائدته وجربته في أولادها ، ثم أشارت على قومها أن يجربوه ، وتعرضت السيدة للاتهام بالدجل والشعوذة ومعارضة إرادة الله ، ولكنهـا صمدت حتى اقتنعت الأسرة المالكة بذلك ، ومارست التطعيم في أفرادها بعد تجارب تمهيدية من خارج الأسرة .

وأخيراً اقتنع القوم به ومارسوه رسميا ، وكانت وفاة هذه السيدة الفاضلة عام ١٧٦٢م . وبعد ذلك بستين عاماً أقاموا لها شاهداً تذكارياً على قبرها ، يسجل فضلها فيما حملت إلى قومها من خير وعلم تجريبي كان يمارس في تركيا[١٩] .

فالتطبيق التجريبي لحديث رسول الله ﷺ (تداووا عباد الله) كان ممارسا على أوسع نطاق ، وكان الفكر الإسلامي ونرجو أن يظل هكذا دائماً ، قادراً على التمثل والمشاركة والإبداع .

(٧) مسئوليات الحاضر والمستقبل

هذه المسئوليات شريحتان :

الأولى : متابعة المسئولية باعتبار الحاضر نقطة متحركة على مسار الزمن . ويومنا هذا هو غد الأمس ، وأمس الغد .

وأهمية هذه المتابعة أنها لا تقف عند عهد معين ولا دورة من الازدهار ، وهي قائمة في إعادة كتابة الحضارة الإسلامية والطب جزء منها .

نحن لا نتصور عهداً ذهبياً عقم بعده الوجود الإسلامي أن يلد جديداً ، ولو في مجال جزئي .

وهذا الرصيد يتناول العالم الإسلامي في شموله ، وتتحرك في داخله دوائر إقليمية ووطنية ، وهو بهذا دائرة وسطى أو داخلية إذا درسناه في المنظور العالمي .

وفي دراسة هذه العلاقات يمكن أن نجمع بين عدة مناهج : كالإقليمي (Regional) والموضوعي (Thematic) وأن يكون هذا بتعاون

مع المنظمات المسئولة عن تاريخ الحضارة في العالم الإسلامي ، وعلى الصعيد العالمي ، مع الإفادة من جهود سبقت ، وإضافة ما يكشفه نشر الوثائق العلمية والمخطوطات . وهي عناية زادت مع الصحوة المعاصرة في العالم الإسلامي .

الثانية : تخطيط مسئوليات المستقبل ، وتقتضي تحركاً من موقعنا في الدوائر السابقة جميعاً وأبرز هذه المسئوليات نحو :

١ ــ الطب الوقائي .
٢ ــ الطب العلاجي .
٣ ــ البحوث العلمية .

(٨) بين الوقاية والعلاج

في كثير من أقطار العالم الثالث أو النامي نستطيع أن نعتبر الطب الوقائي هو « الطب المغبون » .

يقول الدكتور/ نبيل الطويل في كتابه « الحرمان والتخلف في ديار المسلمين » (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م) .

إن أولوياتنا في العالم الإسلامي والنامي المتخلف مقلوبة ، نجد فيه خدمات « الصحة العامة » عادة ضعيفة ومحصورة في المراكز الحضرية ، وتشكو من عدم الاهتمام الجاد بها . ويكتسح الطب العلاجي أكثر جوانب الميزانيتين العادية والإنمائية . ذلك لأن الطب

العلاجي إنجازه له بريق ، وله كيان مادي ملموس من المباني والأجهزة ، يمكن أن تحتفل به أجهزة الإعلام ، وأن يدعم كيان جهاز حاكم .

أما الطب الوقائي فليس له هذا التأثير النفسي[٢٠] المطلوب ، وتتوزع خدمات الطب الوقائي على قاعدة شعبية أوسع ، وتزداد الحاجة إليه مع انخفاض المستوى الاجتماعي ، حيث غير القادرين على إيصال أصواتهم عالية إلى مراكز اتخاذ القرار وتحديد وتوزيع الميزانيات والخدمات .

وغير ذلك كائن في الطب العلاجي ، فمهما قيل فيه فهو طب لاحق للطب الوقائي .

ويأتي علاجا لخطر قائم ، بينما الطب الوقائي حماية من خطر متوقع ، وفي الطب العلاجي خصوصية لاقتصاره على المرضى ، وخصوصية أخرى لأن أكثره يمارس في مؤسسات حكومية أو أهلية .

وإذا كان الغالب في الطب الوقائي أن تنتقل الخدمة إلى الفرد ، فإن الغالب في الطب العلاجي أن ينتقل الفرد إلى مركز الخدمة ، وإذا كان الإثنان متكاملين فأن الوقاية أصل باعتبارها امتدادا للوضع السوي ، والعلاج فرع باعتباره عودة بالمريض إلى الوضع السوي أو ما يقرب منه .

(٩) البحوث العلمية

إن البحث العلمي المعاصر نشاط جماعي لم يعد يلائم الباحث والعالم المنعزل ، ولا المجموعة العلمية المنعزلة. وقد أصبح التعاون العلمي ضرورة على المستويات الوطنية والإسلامية والعالمية ، وهو تعاون لا تغني فيه القراءة والمراسلات عن اللقاء والحوار المباشر[٢١] .

وفي المجال الطبي نحن محتاجون في العالم الإسلامي إلى بحوث تشمل آفاقاً رئيسية خمسة على الأقل :

الأول : مزيد من العناية بالتراث الطبي في أرض الإسلام ، وذلك من الناحية التجريبية ، حتى نرفع النسبة المئوية من اعتمادنا عليه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وذلك على قواعد علمية سليمة .

الثاني : العناية بالطب التقليدي في مهاد الحضارات القديمة كالصين والهند .

الثالث : الاتصال المنتظم بمراكز البحوث العلمية في العالم المتقدم .

الرابع : دعم الحوار بين رجال الطب ورجال الشريعة الإسلامية والأخلاق ، وهو حوار قد بدأ فعلا على الصعيدين العالمي والإسلامي .

أ ــ على الصعيد العالمي أشير إلى ندوة قارنا عن « علم

الحياة والأخلاق » وكان عقدها في يونيو ١٩٧٥[٢٢].
وكان علم الحياة فيها ذا مفهوم واسع ، شمل كل العلوم المتصلة بحياة الإسان ، وجاءت بعدها ندوات ومؤتمرات متخصصة ، تربط بين الجوانب الطبية والأخلاقية لظاهرة خاصة كالمسكرات مثلا . .

ب ـ على الصعيد الإسلامي : صدر عن المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية « الدستور الإسلامي للمهنة الطبية » (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) .

وشهدت الكويت ندوة متخصصة عن الإنجاب بتاريخ (شعبان ١٤٠٣هـ/ مايو ١٩٨٣م) وصدر عنها كتاب من المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية هذا العام ، وقد ضمت الندوة رجال طب ورجال دين في حوار مغلق خصب ، وفي جو علمي موضوعي ، وكانت الندوة استطلاع طريق جديد في الحوار المباشر الذي يحاول فيه الجميع حل مشكلات تتعلق بحاضر ومستقبل المسار الإسلامي ، في عصر تفتح فيه الكشوف العلمية أبواباً جديدة في الأنفس والآفاق .

الخامس : القيام بالدراسات الميدانية المباشرة التي تظهر بها أبعاد المشكلات وجوانبها المادية والبشرية ، والتي تمهد لاستنبات الحلول في أرض تتقبلها ولا ترفضها .

(١٠) ضوء على أفق التعاون العالمي

أولا : هناك الاتجاه العالمي إلى تكوين أخلاقيات جديدة (Urgen-cy of developing a new ethics) تأخذ في اعتبارها إنجازات العلم وأن تضعه في خدمة الإنسان وصالح الجماعات الإنسانية في كل من الدول المتقدمة والنامية ، وتحقيق الرغبة التي أبداها العلماء في أن يتابعوا الحوار مع رجال الأخلاق ، ليعين كل جانب منهما الآخر ، ولتقوم حقوق الإنسان على أساسين من العلم والأخلاق .

وسيعين هذا الحوار على تحديد المفاهيم بينهما ، واللغة المشتركة التي يتعاملون بها ، ويحل تكامل البحوث محل توازيها أو تتابعها .

وإن الأمل الذي تمنته ندوة قارنا أن تنتقل هذه المفاهيم من المستوى البحثي إلى المستوى التعليمي في الجامعات والمدارس المتخصصة ، ثم التعليم العام ، ثم المستوى الثقافي في المجتمع العريض . وأن يتم هذا التعاون بين المنظمات المتخصصة في الأمم المتحدة ، وفي مقدمتها اليونسكو (UNESCO) ومنظمة الصحة العالمية (W.H.O.)[٢٣] .

ولقد برزت الحاجة العالمية إلى هذا الميثاق العلمي الأخلاقي بعد الحرب العالمية الثانية .

كان العلم قبلها وفي القرنين السابقين أكبر إنجاز للإنسانية ، والعلماء قادة الفكر ورواد التقدم ، وبكشوفهم وابتكاراتهم تحسب

خطوات الشعوب نحو مستقبلها. ولكن عام ١٩٤٥ كان حاسما في تعديل النظرة إلى العلم ، فبعد إلقاء القنبلة الذرية الأمريكية الأولى على هيروشيما والثانية على نجازاكي ، بدا العلم كائنا له وجهان : ملاك وشيطان ، نار ونور .

فقد أخرج الإنسان المارد من القمقم ، وأصابت الدين ومثالياته ضربة قاتلة ، كما يقول المؤرخ العالمي أرنولد توينبي[٢٤] .

ودخل العلم السياسة والحرب ، وارتفعت نفقات بحوثه ، واتسعت آفاقه ، وبرزت سيطرة الدولة على كثير من أجهزته الكبرى .

وظهرت أسلحة جديدة تهدد الوجود الإنساني كله ، وأصبحت الحياة معلقة بميزان الردع أو الرعب أو الخوف النووي . لا فرق .

وفي غزو يخترق جدار الطب ظهرت حروب الجراثيم والإشعاع ، وتدمير المراكز العصبية في الإنسان[٢٥] .

وتعيش الإنسانية عصراً تختلط فيه القوة بالخوف ، والتعاون العلمي بالتنافس والتسابق ، وأسرار الطبيعة بأسرار الدول ، وحراسة المنشآت العسكرية بحراسة المنشآت العلمية .

وفي كثير من لقاءات المنظمات العالمية التي تستطيع أن ترتفع فيها أصوات الشعوب ، نسمع الدعوة إلى الحد من التسليح ، وتوجيه بعض نفقاته إلى التنمية والوقاية والعلاج والتعليم . وحساب ما ينفق على

الدمار ، أو الاستعداد له ، أو الخوف منه .

وفي مقابل هذا نسمع أصواتاً من رجال السياسة ، تدعو إلى الحد من هذه الآمال العريضة ، وعدم الاعتماد عليها في تمويل مشروعات السلام والتنمية ، ومنها آمالنا في صحة أفضل للإنسان ، كل إنسان .

وقد عرض ريتشارد نكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة هذا الأمر ، في كتابه السلام الحقيقي The Real Peace (١٩٨٣) يقول : «إن الحرب خيار مضى وقته ، والسلام هو الخيار الوحيد للمستقبل ، ومع أننا نرى الحرب عديمة الجدوى ففي صيف ١٩٨٣ كانت هناك خمسة عشر حربا بالإضافة إلى عشرات من الحروب الصغيرة في العالم الثالث . ومنذ الحرب العالمية الثانية قامت مائة وأربعون حرباً ، مات فيها ما لا يقل عن عشرة ملايين ، إن السلام ليس نهاية الصراع ، ولكنه أسلوب لمعايشة الصراع وعند إقامته لابد له من رعاية دائمة ، وإلا فارق الحياة »[٢٦] .

ولنتأمل طويلا في عبارته التالية :

« إن من الخطر أن نخلط بين السلام الحقيقي والسلام الكامل ، إن المثاليين يأملون في عالم بلا صراع ، وهو عالم لم يكن ولن يكون ، ومن أجل حقائق الحياة لا يتحقق هذا السلام الكامل إلا في مكانين : القبر ، وأمام آلات الطباعة . إنه مادة الشعر والمقالات الصحفية التي تضع الأفكار الجميلة في الكلمات الجميلة .

أما السلام الحقيقي فهو سلام أرضي في عالم الواقع ، يقوم به قادة عمليون ينظرون إلى مصالح شعوبهم نظرة جسورا فيها صلابة الماس »[٢٧].

وانتهى إلى وجوب توفير قوة عند كل من الدولتين الأعظم ، قادرة على حماية نفسها ، وردع الطرف الآخر ، ثم اقترح أن يكون العمل في العالم الثالث مزجاً بين منهج الصقور والحمائم ، وموازنة بين استخدام القوة والعون الاقتصادي[٢٨].

ذكرت هذا التلخيص لأبين أمراً أساسياً . هناك جانب من العون قد يأتي من هذه الدول الكبرى المشغولة بقضية الصراع العالمي والتسابق فيه ، وعون يأتي من المنظمات العالية . وقد أخذت الضغوط تشتد عليها مع ارتفاع أصواتها بالسلام ، كما حدث مع اليونسكو في ديسمبر ١٩٨٣م، ذلك لأمهد لأمر أساسي : هو أن يكون اعتماد العالم الإسلامي ، في تنميته ، على نفسه أولا . هذه النفس المؤمنة بالله وبالإخاء وبالتخطيط العلمي .

(١١) ضوء على أفق التعاون الإسلامي

وإذا كنا، شئنا أم أبينا، جزءاً من هذا الكيان العالمي ، ومصائرنا مرتبطة به إيجابا وسلبا ، فعلينا أن نتحرك أفضل تحرك ممكن في حدود طاقاتنا فيما نحن بسبيله تحت مظلة هذا المؤتمر .

وأول هذه الجهود التنسيق بين جهودنا ومواردنا ، وما تقوم به المنظمات ذات الطابع الإسلامي العالمي ، والدوائر الأصغر التي تتحرك في هذه المجالات في قطاعات العالم الإسلامي .

ولنذكر مثالا بفتح الطريق لآفاق هذا التعاون ، بادئين بأهم هذه المنظمات ، وهي منظمة المؤتمر الإسلامي ، ففي مطلع عامنا هذا (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) شهدت مدينة الدار البيضاء بالمملكة المغربية مؤتمر القمة الإسلامي الرابع .

وكان من بين اللجان التي شكلها مؤتمر القمة الإسلامي بمكة المكرمة (يناير ١٩٨١م) لجنة التضامن مع دول الساحل (سيلس) هذه الدول التي تلي الصحراء الكبرى جنوباً ، كأنها الساحل المعمور المطل على هذا البحر الرملي الواسع .

ونحن نعلم ما تقاسي منه هذه الدول من زحف الصحراء جنوباً ، وتراجع العمران والخضرة أمام هذا الغزو الرملي الصامت المستمر ، وقد أوكل مؤتمر القمة الإسلامي إلى هذه اللجنة مهمة متابعة وتطبيق الإجراءات الكفيلة بمساعدة دول الساحل ، وذلك بمكافحة الجفاف واتخاذ المبادرات التي تراها صالحة في هذا المجال ، وأقرت إطاراً عاماً للمساعدة الطارئة من الأغذية ، ولمشروعات التنمية الريفية العاجلة ، وقدمت كل من المملكة العربية السعودية ودولة الكويت والجمهورية العراقية ودولة الامارات العربية المتحدة مساهمة مالية لهذا الهدف .

الذي أود أن أقوله هنا أن هذا العمل الوقائي ، قطاع جغرافي من جبهة طويلة تمتد في العالم الإسلامي بين المحيطين الهادي والأطلسي ، وقطاع موضوعي من مشكلة التنمية في شمولها الذي يضم مقاومة العقبات التي تعوقها ، ودعم الإيجابيات التي تسارع في تقدمها .

فنحن إذن بحاجة ماسة إلى أطلس خدمات للعالم الإسلامي ، ولعل هذا المؤتمر ، أن يحمل الجزء الخاص بالخدمات الطبية بجوانبها الثلاثة .

وإذا كانت منظمة المؤتمر الإسلامي ذاتها قد درست في اجتماع الدار البيضاء (يناير ١٩٨٤م) موضوع تداخل الاختصاصات بين الأجهزة المنبثقة منها ، وهي تسعى إلى تعديل في هيكلها الإداري ، فإن الحاجة إلى التنسيق تكون أشد ، إذا ما نظرنا إلى التعاون العلمي على مستوى يجمع المنظمات والأجهزة العاملة في الصعيد الإسلامي العالمي .

وهذا التنسيق الممهد لوضع أطلس الخدمات الطبية الإسلامية ، هو جزء من أطلس الخدمات الإسلامية الشامل ، وهو بدوره جزء من صورة المستقبل الإسلامي .

(١٢) الخاتمة

في مطلع هذا القرن الهجري الخامس عشر تنادى المسلمون باستثمار هذه المناسبة التاريخية ، التي تواكبت مع صحوة إسلامية ، لترشيد هذه الصحوة التي توفرت لها بين المسلمين رغبة في التعاون ، وتقارب وسهولة في الاتصال ، وفضل من المال، وزيادة في الطاقة البشرية المتعلمة،وزيادة إحساس بحاجات العالم الإسلامي .

وتنادوا بمشروعات تنمية مشتركة ، وإقامة محكمة عدل إسلامية ، تفصل في قضايا الدول الإسلامية ، وتقيم بينهم السلام والصلح والعدل .

برز هذا في مقررات مؤتمر القمة الإسلامي الثالث والرابع . ورغم اشتداد الحاجة إلى كل جهد بشري ومادي ، تشتعل الحروب عنيفة في العالم الإسلامي على مستوى الدولة الواحدة أو الجيران الأقربين أو إخوة العقيدة ، فهل نأمل في أن تضع الحرب بين إيران والعراق أوزارها ، ويعود السلام إلى ربوع لبنان ، ويعود أبناء الأرض إلى وطنهم فلسطين ، ويعود كل لاجىء أو مشرد إلى وطنه ؟

على الصعيد الإسلامي يدعونا ربنا إلى هذا ، وإليه ندعو الأفراد والشعوب للصالح الإسلامي العام .

ونحن هنا رجال علم وفكر ، عدتنا الكلمة الطيبة والنصح ، وتقديم المشورة لقومنا وإخوتنا في العقيدة، وكل محب للحق والسلام والعدل .

ولقد تعودنا الصبر على طلب الحق والحقيقة . ونحس أن المسئوليات الكبيرة التي ينبغي على العالم الإسلامي علمياً وعملياً أن يلقاها تحتاج إلى جهود الكثيرين . وأن علينا أن نقيم المعابر بين العلم والدين ، وأن نجمع بين الذين يعملون في مجالات البحوث العلمية ومجالات التشريع لدراسة مشكلات كثيرة (كهندسة الوراثة والإنجاب) .

وصفوة القول : إن علينا أن نعيد كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية ـ والطب جزء منها ـ في ضوء جديد ، وهذا هو حق الماضي ، أما حق الحاضر والمستقبل ، فهو دراسة مشكلات الوقاية والعلاج والبحوث في آفاقها الخمسة التي عرضناها ، وتنسيق العلاقات العلمية الإسلامية ، لتوفر لنا أعلى مردود ، مع اختصار الوقت والجهد .

وأشكر لكم حسن استماعكم . . .

مكتبة البحث

(١) سيد حسين نصر : العلوم في الإسلام ص ١٥٨ ـ ١٥٩ وهو الترجمة العربية الصادرة عن دار الجنوب للنشر بتونس ١٩٧٨ ، عن الأصل الإنجليزي وعنوانه Islamic Science الصادر عن مؤسسة مهرجان العالم الإسلامي بلندن ١٩٧٦ .

(٢) في أبحاث الندوة العلمية الأولى « لتاريخ العلوم عند العرب » المنعقدة في جامعة حلب (سوريا) ربيع الثاني ١٣٩٦هـ/ أبريل ١٩٧٦م ونشرها معهد التراث العلمي بجامعة حلب ألقى الدكتور فؤاد سزكين أستاذ تاريخ العلوم في جامعة فرانكفورت ألمانيا محاضرة عن مكانة العرب في تاريخ العلوم ، ص ٤٥ ـ ٥٨ .

وألقى الدكتور/ عبدالحميد صبره أستاذ تاريخ العلوم عند العرب بجامعة هارفارد الولايات المتحدة الأمريكية محاضرة عن تاريخ العلوم عند العرب أهدافه ومشكلاته ص ٥٩ ـ ٧٩ وكان مما عني به الباحثان ، التركيز على الفترة اللاحقة لسقوط بغداد يقول سزكين «إننا لا نحتاج إلى أدلة كثيرة لنثبت أن العلوم العربية بلغت ذروتها في القرنين السابع والثامن الهجريين نذكر مثالا لذلك اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية وعرض لسان الدين بن الخطيب لقضية العدوى ووضع فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع على يد ابن خلدون » .

كذلك أبرز عبدالحميد صبره في بحثه أصالة الفكر الإسلامي ومن حملوا لواءه بعد سقوط بغداد . . ولقد كان مما أوصى به المؤتمر القيام بتأليف مرجع علمي في تاريخ الطب العربي الإسلامي (ص ٤٢) وهو اقتراح يمكن التوسع فيه ليضم الطب الإسلامي في شموله الزمني والمكاني والموضوعي وما يتصل به من علوم الحياة .

(٣) سيد حسين نصر (المرجع السابق) ص ١٥٢ .

وفي هذه الدراسة يعني المؤلف بمسار الأنشطة العلمية وفي العالم الإسلامي غير الغربي والتطور العلمي الإسلامي العام وربطه بالتطور العالمي .

(٤) الإسراء/ ٧٠ .

(٥) البقرة/ ٣٠ .

(٦) البقرة/ ٢٩ .

(٧) الملك/ ٢٣ .

(٨) الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة : ٢ : ٨ طبع التجارية ، القاهرة .

(٩) الإسراء/ ٢٣ .

(١٠) النساء/ ١ .

(١١) ابن القيم : الطب النبوي ص ٨ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان رواه الإمام أحمد عن أسامة بن شريك .

(١٢) ابن منظور : لسان العرب : مادة جن ١ : ٥١٥ - ٥١٩ ط . دار لسان العرب بيروت .

(١٣) ابن الأثير : جامع الأصول ١٠ - ٣٥٤ حديث رقم ٧٣٢١ رواه الشيخان عن أبي هريرة تحقيق محمد حامد الفقي : ط . دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨٣م .

(١٤) ابن القيم : عدة الصابرين .

كنموذج : قصة مرض عروة بن الزبير وصبره في الباب السابع عشر عن الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر . ص ٩٠ - ٩٥ ط . مكتبة المتنبي القاهرة ١٩٧٧م .

(١٥) لهذا الحديث دراسة مفصلة في

الطبري (أبو جعفر) تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار . مسند علي بن أبي طالب . تخريج محمود شاكر ص ٣ - ٤٤ ط . المدني القاهرة ١٩٨٢م .

(١٦) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٥٠٨ - ٥٠٩ ط . دار القلم/ القاهرة ١٩٦٦م .

(١٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء .

ترجمة الحارث بن كلدة ص ١٦١ - ١٦٧ - منشورات دار مكتبة الحياة/ بيروت ١٩٦٥م .

(١٨) الجزء الثالث من زاد المعاد مخصص للطب النبوي ويطبع أحياناً مستقلا بهذا الإسم .

(١٩) شوكت الشطي : الوجيز في الإسلام والطب ١ : ١٨٢ - ١٨٤ مطبعة جامعة دمشق ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م .

(٢٠) نبيل الطويل : الحرمان والتخلف في ديار المسلمين قصة التخلف الموجود والتكافل المفقود ص ١٢٦ - ١٢٧ سلسلة كتاب الأمة رقم ٧ قطر/ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

(٢١)

Charles Moraze' (editor): Science and the Factors of inequality. UNESCO, 1979.

فحص مورازية العقبات التي تقابل المساواة العلمية في الفصل السابع من كتابه هذا

من ص ٢٤٣ إلى ص ٢٥١ بالمشاركة مع ديرك دي سولا بـرايس Derek de solla Price كما عرض نتائج بحوث الكتاب المشاركين تحت عنوان : العلم ذلك المجهول Science the Unknown من ص ٢٥٥ - ٢٦٩ وهو إطار عام إذا كنا لا نوافق فيه على رأيه في العلاقة بين الاتجاه إلى الدين وبين البحث العلمي، إلا أن الإطار العام فيما يختص بالعلم نحن في أشد الحاجة إليه .

(٢٢) Bruno Ribes: Biology and Ethics, UNESCO, 1978, Insight Series, No.2.

(٢٣) تراجع توصيات ندوة ڤارنا التي عرضها برونو رايبس في كتابه الندوة في يونيو ١٩٧٥ والتوصيات من ص ١٩٥ إلى ص ١٩٩ .

(٢٤)

Toynbee, A.: An Historian's Approach to Religion, PP. 133-234. Oxford University Press, 1957.

(٢٥) أنظر في هذا مجموعة من الدراسات نشرتها هيئة اليونسكو عام ١٩٧٨م وهي الكتاب الأول من سلسلة Insights. وعنوانها انتحار أم بقاء ?Suicide or Survival وبخاصة البحث الآتي :

Sean Macbride: Brainwashing with a good clean bomb, 89-93.

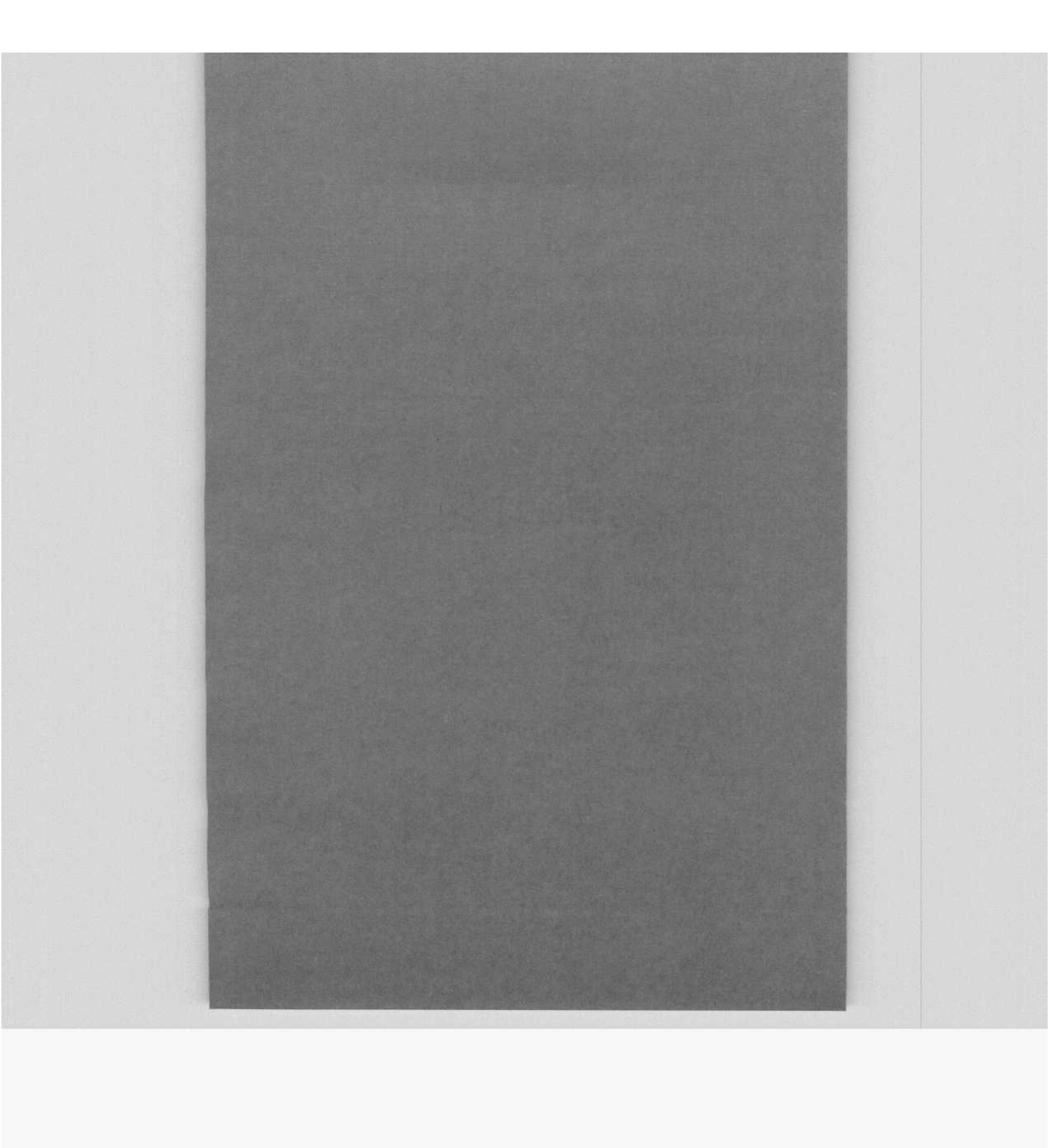
(٢٦) Richard Nixon: The Real Peace, PP. 2-4, New York, 1983.

(٢٧) نفس المرجع ص ٨٦ - ٩٣ .

(٢٨) نفس المرجع ص ٨٦ - ٩٣ .

المحاضرة الثالثة

جسر بين الشباب وعلماء الإسلام



جسر بين الشباب وعلماء الإسلام*

ملخص

١ ــ هذا البحث محاولة لوضع إطار عام لما يمكن أن نطلق عليه « **الطب النفسي الوقائي** » إذا كان الاقتراح محل قبول . ويحاول أن يقيم جسرا بين الشباب وعلماء الإسلام ، ويكون عوناً على تعديل المسارات وجمع الطاقات لتتجه إلى البناء .

٢ ــ ويمكن تصوير البحث هندسيا على النحو الآتي :

نضع الشباب في مركز الدراسة ومن حوله أربعة اتجاهات كأنها الجهات الأصلية . أو كأنها اليمين واليسار والأسفل والأعلى .

الاتجاه الأول إلى اليمين نحو العنف ، وإلى اليسار نحو العلمانية والإلحاد ، ونحو الأدنى إلى الانحلال الأخلاقي ، ونحو الأعلى هو (في سلبيته) التقليد والجمود .

هذا الإطار السلبي يمتص طاقات الشباب ، ونتيجته التخلف الذي فجوته تزداد اتساعاً .

٣ ــ والذي نرمي إليه هو تحويل المسارات بحيث تصبح على النحو

(*) القيت في المؤتمر الرابع للطب الإسلامي بجمهورية باكستان في الفترة ما بين ٩ ـ ١٣ نوفمبر ١٩٨٦ ونشر في كتاب أبحاث المؤتمر الرابع للطب الأسلامي .

التالي :

ــ من العنف إلى الحكمة .

ــ ومن العلمانية والإلحاد إلى العلم والإيمان والمنهجية .

ــ ومن الإنحلال الأخلاقي (بكل مظاهره كالإدمان) إلى التماسك الأخلاقي .

ــ ومن الجمود والتقليد إلى التقدم والإبداع .

٤ ــ وقد تناول البحث كل اتجاه من هذه الأربعة بشيء من التفصيل وبيّن تحولها من التغير الكمي والتراكمي إلى التغير الكيفي ، وبخاصة في مجال عنف الشباب الذي تحول ـ في بعض الأقطار ـ إلى نوع من الانتحار الجماعي الدوري ، وإن كان انتحاراً بأيدي الآخرين ، وإلى الترابط بين الانهيار الأخلاقي والأهداف الاستعمارية التي تريد تدمير الشباب ، وإلى الترابط بين التغريب بمدارسه المتعددة وبين الإلحاد والعلمانية . كما عني بالظروف المساعدة على الإبداع وهو الطريق المفتوح لقبول التحدي الحضاري .

٥ ــ ومع اتساع الهدف تبدو بعض أجزائه داخلة دخولا مباشرة وقريبا في الصحة النفسية كما تمارس في أطرها الحالية ، وبعض أجزائه عبارة عن آفاق جديدة علينا أن نلجها ، وأجزاء أخرى تدخل في نطاق بحوث اقتصادية واجتماعية وثقافية .

٦ ــ ولعل هذا الاتساع يدعو المؤتمر إلى تبني فكرته ، ليصعد بها إلى ما يمكن أن نسميه بالاستراتيجية العليا لمستقبل الشباب الإسلامي ، أوالميتاستراتيجية ، وينسق جهوده مع المنظمات الأخرى . والقضية

في شمولها لا يمكن أن تبدأ بها إلا منظمة - إذا كـان فيها حـدود التخصص - ففيها أيضا طموح الرؤية وشمولها ، والقدرة التنسيقية على معالجتها بالتعاون مع التخصصات الأخرى .

٧ ــ إنها قضية مستقبل الشباب الإسلامي وصحته النفسية ووقايته - ما استطعنا - من هذه الأخطار الثلاثة الكبرى وحشد طـاقاتـه نحو الإبداع والتقدم .

(١)

هذه المحاضرة ، أكثر مدادها من الواقع الذي نحياه . والجانب الأكبر من مراجعها معاناة وتجارب مباشرة عاشها أو عايشها المتحدث إليكم ، وتمتد جذورها إلى ما بين الحربين العالميتين ، فلن أثقلها بهوامش كثيرة . وشجعني على اختيار الموضوع أن جوانب منه تناولها المؤتمر العالمي الثالث للطب الإسلامي في استانبول منذ ثلاث سنوات . وشجعني أيضا أن موضوعها له سنده من أصول ديننا ، وعناية علمائنا ، وتوترات حاضرنا ، وآمال مستقبلنا .

ولنبدأ أولا بتحديد مجال البحث من كلمات عنوانه ، لنرى موقعه وعلاقاته باهتمامات المؤتمر .

الكلمة الأولى : جسر : وهو بين موقعين فكريين : الشباب وعلماء الإسلام . والمرور على جسر في اتجاهين : من الشباب وإليهم .

ومرور موضوعات الحوار على الجسر ، يتصف بأمرين أساسيين :

أولهما الحرية ، والثاني الاستمرار . ويكفلهما نظام نابع من الإيمان بكرامة الإنسان : الشاب والعالم معا . وتتلاقى الأفكار حول موائد الحوار دون تصادم . والحوار مستمر ومتسع يشمل مشكلات العصر وأزماته وتطلعاته ، دون اقتصار على الأمس واليوم .

الكلمة الثانية : الشباب : دون أن نقف طويلا عند تحديد

السن . على أن أكثر العناية تتجه إلى الفترة ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين ، وتشمل مرحلتي التعليم الجامعي والعام وما قبلهما دون إغفال لمرحلة الطفولة .

ومن الشباب علماء ، أو هم في طريقهم إلى ذلك ، ومن العلماء - وإن تقدم السن - شباب القلب الداعي إلى العناية المستمرة بمشكلات المجتمع والأجيال الجديدة فيه .

ولا تقتصر العناية على شباب المدينة بقطاعيه العمالي والمدرسي ، وهم الأعلى صوتا والأكثر قدرة على التعبير ، ولكنها تمتد إلى الريف والبادية . ولن نقف عند قطاع محدود من المشكلات ، وإنما سنعنى بمرحلة معينة فيها ، هي التحول الكيفي من الأعتدال إلى الاندفاع . وهو أمر يصدق على شئون الفكر والدين معا . مرحلة تحتاج إلى تدخل صحي ستكون أكثر العناية فيه بالجانب الوقائي في نور من قول الله تعالى ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ (البقرة/ ١٨٥) .

الكلمة الثالثة : **علماء** : وهي كلمة ومنهاج في ذات الوقت . وتقتضي تحديد أسلوب الحوار بين الأطراف وهدفه . ولكل قطاع في المجتمع أو الحياة العامة منهجه وهدفه الذي يسعى إليه .

١ ــ **فالقاضي** ، وفي حدود القانون الذي يحكم به ، الناس أمامه بريء أو مذنب ، والعدل عنده تطبيق القانون ، والظلم تجاوزه .

٢ ــ **ورجل الأخلاق** يعيش بين حدين : الخير والشر ، وفق الناموس

الأخلاقي الذي يرتضيه لنفسه ، أو يرتضيه المجتمع الذي يعيش فيه .

٣ ــ **ورجل العلم** يعيش بين حدين : الصواب والخطأ ، وهو دائب السعي في توسيع حدود معرفته ، والاقتراب بما يراه اليوم صوابا ، إلى ما يثبت البحث العلمي أنه أقرب إلى صواب أكبر .

٤ ــ **ورجل السياسة والحرب** : هدفه الانتصار في معركته . وبقاؤه بين حدين : النصر والهزيمة ، وبينهما درجات ومراحل . ولا مانع عند بعضهم من تجاوز نطاق الحق والعدل والأخلاق في سبيل تحقيق الهدف[٤] .

وفي مجالنا العلمي نود أن يكون التعاون بين **علماء** عدتهم الكلمة والتجربة وتوسيع دائرة المعرفة ، وبين **علماء أخلاق** ، ليسير الشباب في طريق لا تناله يد القانون أو سطوة الحكم ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وإن مناهج هذين (أي العلم والأخلاق) ممكنة التطوير ، والأمل أن يتم حوار أوسع بين القطاعات الأربعة ، بتطور أداة الحكم .

الكلمة الرابعة : الإسلام : وفي مجاله يتحرك الشباب والعلماء معا . مجال يقول الله فيه عن علمنا وإدراكنا له ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ (الإسراء/ ٨٥) .

فبكل التواضع لله في محراب العلم ، نجلس إلى مائدة الحوار . وبكل الحب والمودة نستمع إلى شبابنا . وبكل الموضوعية والتجرد نتناول

المشكلات محاولين أن نصل من طرفي الحوار أو أطرافه إلى تركيب ، يصعد بحاضر الإسلام ـ وشبابه أغلى ما فيه ـ إلى مستوى أعلى .

إن من أبرز سمات الإسلام :

١ ــ الإيمان بالله تعالى .

٢ ــ الإخاء الإنساني .

٣ ــ الشمول .

٤ ــ المنهجية العلمية .

٥ ــ المستوى الأخلاقي .

وبعبارة أخرى : صلة الإنسان بربه إيماناً ، وبالناس إخاء ، وبالكون عمرانا ، في شمول وسمو ومنهجية علمية .

وصفوة القول : إن عملنا تحت مظلة الإسلام ، وفي مستوى أخلاقياته وبموضوعية منهجية ، وفي مجال مشكلات الشباب بأضواء من بحوث علماء الإسلام .

(٢) اختيار ملف الأبحاث
المنهج والمحتوى

إلى هنا ويحسن أن نتوقف قليلا . فما علاقة هذا الحديث بهذا المؤتمر وفي حدوده العلمية .

قد يقال : إن الموضوع يدخل في دراسات الشباب أو الدراسات الإسلامية العامة ، أو مشكلات المجتمع الإسلامي المعاصر .

ثم : أي مشكـلات الشباب هي التي تحتـاج إلى نظرة الأطبـاء المسلمين ؟ وتحت أي تخصص تدخل ؟

فلنحدد مشكلات أربعاً أساسية يضمها ملف واحد نضعه أمام المؤتمر ليرى رأيه فيه .

الأولى : العنف في العمـل الإسلامي . وتحـرك قطاعـات من الشباب إلى طريق الصدام ، مع غيرهم من الشباب ، أو مع الأجهزة الحاكمة ، مما يستنفد الكثير من الطاقات ، ويعصف بزهرة من شباب الإسلام في صور متكررة تكاد **أن تكون انتحارا** ، **جماعيا دوريا** ، أو غيابا عن المجتمع في السجون أو المعتقـلات أو الشتات في الأرض . وأصبحت هذه الظاهرة « **متوطنة** » في أكثر من قطر إسلامي ، جذورها إسلامية ، وضحاياها مسلمون . إن المشكلة تبدأ بالفكر ، وتتحول إلى سلوك ، فتنتهي بمأساة ، ثم تعود إلى الظهور . فهل لنا فيها موقع ينـير الفكر ، ويصحح المسار ، ويحقن الدماء ؟ .

الثـانية : العلمـانيـة والإلحـاد : وتمثـل الانـدفـاع المقـابـل في البندول . هي ترك الإسـلام عن فكر وقصـد . والاتجاه قـوي في عالمي الشرق والغرب . وله عندهم جذور وظاهرات غير مـا عندنـا . وقد امتص طاقة قطاع من الشباب ، من الممكن أن يكونوا للعقيدة والأوطان

ذخراً . فما دور المادة الطبية ـ كنموذج ـ في تأكيد الإيمان بالله ، وإحلال المنهجية العلمية محل العلمانية ؟

الثالثة : الانحلال الأخلاقي : بكل آثاره على الفرد والأسرة والمجتمع صحيا ونفسيا ، وبكل آفاقه من المسكرات إلى المخدرات والإدمان ، إلى الجريمة . فما الدور الوقائي أولا ، والعلاجي ثانيا، في هذا المجال ؟ .

الرابعة : التقليد والتخلف : فانصراف الطاقة إلى العنف والإلحاد والانحلال ، يؤدي ، لا إلى وقوف المجتمع مكانه فقط ، ولكن إلى انحداره ، فاذا أضفنا إلى هذا تقدم من حوله ، رأينا كم تتسع الفجوة بين عالم الإسلام وبين غيره من العوالم ذات العقائد أو المبادىء الأخرى .

فهذه كلمات أربع تمثل رؤوس الأقلام في مشكلة الشباب :
١ ــ العنف ، الإلحاد ، ٣ ــ الانحلال ، ٤ ــ التخلف .
وتقابلها كلمات أربع هي ركائز البناء المرجو :

(١) الحكمة .
(٢) العلم والإيمان .
(٣) الناموس الأخلاقي .
(٤) التقدم والإبداع .

وبذلك يصبح المسار المقترح :

(١) من العنف إلى الحكمة .

(٢) ومن الإلحاد والعلمانية إلى الايمان والعلم .

(٣) ومن الإنحلال إلى التماسك الأخلاقي .

(٤) ومن التقليد والتخلف إلى التقدم والإبداع .

فإذا وضعنا الشباب وسط هذه المسارات الأربعة ، كانت مهمتنا تحويل سلبيات المسارات الثلاثة الأولى إلى إيجابيات ، وستكون النتيجة تحويل المسار الرابع ليفتح الطريق إلى مستقبل أفضل .

تكاد المسارات تكون كالجهات الأربع : شرق وغرب وجنوب وشمال ، أو يمين ويسار وأسفل وأعلى ، وهذا الاتجاه الرابع هو مسار التقدم والإبداع .

ووضع المشكلة في هذا الإطار الهندسي يوحيه إلى النفس آيات من القرآن وأحاديث نبوية شريفة .

من القرآن نقرأ قول الله تعالى :

١ ـ ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ (الأنعام/ ١٥٣) .

٢ ـ ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق** ﴾ (الحج/ ٣١) .

ومن الحديث الشريف نقرأ حديث ابن مسعود :

١ ـ خط النبي ﷺ خطا مربعا ، وخط خطا في الوسط خارجا منه ، وخط خططا (أي خطوطا) صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط ، فقال : هذا الإنسان . وهذا أجله محيط بـه . وهذا الـذي هو خـارج ، أمله . وهذه الخـطوط الصغـار الأعراض ، فإن أخطأه هذا ، نهسه هذا ، وإن أخطأه هذا نهسه هذا » رواه البخاري[٥].

(ومعنى نهسه أخذه بمقدم أسنانه) .

هذه « الرباعية » من المشكلات ، ولكل منها حدان من المرض والصحة ، أين نضعها ؟

اقتراح أقدمه يمكن أن نسميه «**الطب النفسي الوقـائي**». وهو ميدان فسيح ، نستطيع أن نحدد فيه أهم المشكلات التي تقابل مجتمعاتنا الإسلامية، وهي شريحتان أساسيتان :

الأولى : ترتبط بالركائز أو الأصوليات كالعقيدة .

والثـانية : تـرتبط بالمتغيـرات ، وأبرزهـا العلاقـة بين السلطة والشعب ، والعلاقة بين المأمول والممكن والواقع .

وإذا كنا قد بذلنا عناية كبيرة في الطب الوقائي ، وكـان أغلبها متجها إلى الجانب المادي والمحسوس ، وأثمـرت هذه العنـاية فـروعا متخصصة، أفلا يحتاج الشباب الإسلامي وسط عصف الحياة المعاصرة، إلى وقاية نفسية تتناول أهم مشكلاته ؟ إن في عرض هذه المشكلات ، ما

يعين على تحديد دورنا فيها . ولا يقتصر هذا الدور على الدراسة المباشرة للقطاع الذي يدخل أو يقرب من اختصاصنا ، ولكنه يفتح الطريق إلى تعاون أوسع مع منظمات إسلامية أخرى ، لها اهتماماتها وتخصصاتها ، ثم تنتقل الدراسة إلى مستوى أعلى يجمع هـذه الدراسـات ويحاول أن يستخرج منها القواعد الكلية التي يمكن تطبيقها على أكثر من مشكلة ، ويتحرك بها ـ إن استطاع ـ لتحصين الشباب ، وتوجيه طاقاته إلى التقدم والإبداع . ولنتناول المشكلات :

أولاً
(٣) من العنف إلى الحكمة

ولكن أي عنف نقصد[٦]؟

١ ــ لعل من أخطر أنواعه « العنف الصامت » الذي يتمثل في الملايين من ضحايا المجاعات في العالم الإسلامي : فيضانات الجناح الشرقي ، وغزو الصحراء في الجناح الغربي ، وتراجع الأرض الخضراء أمام أمواج الرمال ، والتحول في الجزء الباقي نحو المحاصيل النقدية على حساب الغلّات الغذائية .

وتذهب البعثات الطبية بعد وقوع الخطأ ـ هل نقول الجريمة ؟ ـ وأيهما أشد إثماً : اغتيال الأرض الزراعية التي أطعمت أجيالاً بعد أجيال ، أم اغتيال أفراد من جيل ؟ وقد تتكاثر الأجيال ، ولكن الأرض لا تتوالد .

ولقد امتد الاغتيال إلى الأقطار العريقة في الحضـارة ، وزحفت المدن على حساب الريف ، وهجر أهل الريف مزارعهم سعياً وراء الحياة في المدينة ، واحتقنت المدينة بسكانها ، وفي المجاعات ، رغم أن الريف هو المنتج ، إلا أن المدينة هي التي تمارس سلطانها عليه ، ففيها الحكم والقوة ، وهي التي ترسم السياسة الزراعية ، وتكفل لأهلها القدر الأوفى من الغلات الزراعيـة ، ويموت في المجـاعة الـذين زرعوا الأرض ولم يستطيعوا الحصول على غذائهم منها[٧] وهم مطالبون بعد هذا بالطاعة الصامتة . ومن دونها عنف صامت . . إلى حين .

٢ ــ ولا يبعد عن هذا العنف الصامت ، العنف المضاد . الذي يتمثل في محـاولات أصحاب الأرض الاحتفـاظ بها أمـام غـزو بشـري دخيل . وأشد صوره ضراوة ما يحدث في فلسطين المحتلة . فالغزو الصهيوني يقتلع الأرض ، ويحاول جاهدا دفع السكان إلى ما وراء الحدود . فالعدوان واقع على الأرض والبشر والتاريخ والمستقبـل معاً .

وليس أمـام أصحاب هـذا الحق ـ عند الضـرورة ـ إلا العنف المشروع . وغير بعيد عنه ما يحدث في جنوب أفريقيه .

٣ ــ ولكن الذي نود التركيز عليه هو العنف الذي يقوم به الشباب على أسـاس ديني ، أو بينهم وبين الحـاكم المسلم ، من أجل تـطبيق الإسلام[٨] هذا العنف الذي اشتد مع ما يسمى الآن بالصحوة

الإسلامية . وتمثله جماعات شابة عنيفة تكرر اصطدامها فعلا بحكامها اصطداما دمويا ، راح ضحيته العديد من الشباب قتلا وسجنا .

وبمراجعة أدبيات هذه الجماعات يتضح أن فكر الشباب فيها يمر بالمراحل الآتية :

١ ــ إحساس بالاغتراب يتولد من الفجوة بين ما يسمع في المسجد ، وما يقرأ في المدرسة والمراجع عن الإسلام ، وما يتلقاه في الحياة اليومية ، من بُعدٍ عن المبادىء والتطبيقات الإسلامية ، قد يصل إلى درجة التحدي الصريح للإسلام .

٢ ــ يحاول البعض إيجاد جسر بين العقيدة والحياة . وعند البعض تزداد الفجوة اتساعاً . ويبدأ الشاب في الانضمام إلى جماعة تماثله فكراً ، أو تكوين جماعة إذا كانت قدرات القيادة والتأثير متوفرة عنده .

٣ ــ يتطور الإحساس بالاغتراب إلى نوع من الانعزال الفكري أو الشعوري عن المجتمع الذي يعيش فيه ، ويزداد التصاقه بجماعته الخاصة .

٤ ــ يتطور الإحساس إلى « الرغبة في التغيير » ، ومع هذه الرغبة يبرز سؤال : من نحن ؟ وما علاقتنا بالمجتمع الكبير ؟

وهنا يبدأ التحوّل الخطر ، عندما تكون الإجابة : نحن

المسلمون ، نحن جماعة المسلمين ، نحن المعبرون عنه . ولكن : ما الحكم على هذا المجتمع الكبير ؟ مذنبون ؟ عصاة ؟ كافرون ؟ فإذا وصل الحكم بتكفير المجتمع الكبير ، كان السؤال التالي : وكيف نقاومه ؟

٥ ــ وتتضخم أمام أعين الشباب أخطاء المجتمع الكبير : عدم تنفيذ الأحكام الشرعية . إباحة ما حرم الله كالخمر والميسر والربا .

وهنا يتفرق الطريق بالشباب : فمن الجماعات من يكتفي بالكلمة والنقد والتوجيه . ومنهم من يبدأ في اتخاذ الأسباب للتغيير العملي في المجتمع عن طريق نظام الحكم نفسه . ولهذا التغيير عدة نفسية ومادية : أما النفسية فقد بدأت زراعتها منذ الاغتراب ، سيرا إلى الانعزال الفكري والشعوري . أما المادية ، فتحتاج إلى نوع من الانفصال والانطواء والسرية ، بحيث تعيش الجماعة في المجتمع كأنها لا تعيش فيه . تأخذ منه حاجتها من طعام وشراب وملبس ، ولكنها تستعد بسلاحها للهجوم على المجتمع وتغيير نظامه .

٧ ــ ومع فروق جزئية بين الجماعات ، إلا أن اللجوء إلى السلاح والخطط الضيقة الهدف ، أمر مشترك فيها . وفي الحالات التي تمت دراستها كان الاستعداد ضئيلا ، بحيث لا يستطيع بحال من الأحوال أن يغير نظاماً له مؤسساته المدربة . ومن أجل ذلك تلجأ بعض الجماعات إلى أسلوب الضربة المدوية ، وذلك بالعدوان على

رموز الدولة ، وتتكرر محاولات الاغتيال الفردي والتفجير الجماعي . هذه هي التي يسمونها في أدبياتهم مرحلة الظهور بعد مرحلة الكمون السابقة . أو مرحلة الجهاد بعد الاستعداد . أو مرحلة العمل العلني بعد العمل السري . أو العمل فوق الأرض بعد العمل تحت الأرض .

ويربطون - أحياناً - بين هاتين المرحلتين (السر والعلن) وبين العهدين المكي والمدني في الدعوة الإسلامية ، على خلاف واضح في الجوانب التاريخية والموضوعية ، بين الأمرين . ويضفي الربط في ذاته على عمل الجماعة هالة من القداسة ، كأنهم بها يكررون قيام الدعوة الإسلامية الأولى - أو يهتدون بها .

هذا التحول الكيفي هو الذي يحتاج إلى وقفة علمية دارسة . فهو في كثير من الحالات ، **كان نوعاً من الانتحار ، بأيدي الآخرين** : تضع به الجماعة نفسها في موضوع الاستشهاد ، أو تحاول كتابة الفصل الختامي من قصة ارتفعت درجة حرارتها بين أيديهم ، وليس وراء الارتفاع إلا الانفجار .

والشاب يستمد من معين تمسكه بقضيته ، ما يؤمن أنه الحق في دنياه ، والجنة في أخراه . ويسير إلى مصيره مع إخوانه ، ويختزن في نفسه من بطش السلطان وإحداث التعذيب في السجون والمعتقلات ، وبشاعة امتهان الإنسان ، ما يجعل الموت أقرب إليه من حياة ، فقدت مصداقيتها الإنسانية .

ومن هذا الخط الرئيسي خطوط مصاحبة وممهدة ، أو تصرفات تكمل بها صورة ، أو صور هذه الجماعات ومن أبرزها :

١ ــ محاولات البعد عن العمل الحكومي باعتباره كسباً حراماً ، يدخل فيه الربا وكسب الخمر ، أو على الأقل قطاعات من العمل الحكومي ، كالبنوك والشركات الاستثمارية .

٢ ــ اللجوء إلى بعض الحرف اليدوية ، وبعض البيع والشراء البدائي ، وترك الكليات الجامعية ، باعتبار ما فيها من علم لا يعين على دين ولا دنيا .

٣ ــ الشك في الكثير من علماء الدين ، ثم مقاطعتهم باعتبارهم علماء الحكم والسلطان ، وقد ساعد على هذا ضغوط بعض الحكومات الإسلامية على علمائها ، واستصدار فتاوي منهم تحت قهر السلطة ، شوهت صورة قطاع من العلماء ، وجعلت أيديهم هي السفلى، وأقلامهم هي المغلوبة .

٤ ــ الانقطاع عن كثير من كتب الدين ، إلا ما كان مرتبطا بالقرآن والسنة والتراث المأثور ، وإعطاء أنفسهم حق التجميع بين أجزاء منها ، وتكوين صورة شاملة ، وتطبيقها على الواقع الذي يعيشون فيه .

٥ ــ اللجوء إلى تطبيق أحاديث الفتن على الواقع الذي يعيش فيه المسلمون ، وكذلك أحاديث المهدي ، وأحاديث تجديد الدين على

رأس كل مائة عام . ووصل الأمر إلى تطبيق الصفات الجسدية ، لمن نـادوا بهم مهـديـين ، عـلى الصفـات الجسـديـة الـواردة في الأحاديث . بحيث أصبح تأويل هذه الأحاديث هو معيار الصواب ومنهج السير في جماعتهم، حسب ما انتهى إليه رأي قادتهم .

٦ ـ اللجوء إلى كهوف ، كأنهم صورة جديدة من أهل الكهف الذين اعتزلوا قومهم .

٧ ـ هذا إلى التمسك بزي مخصوص ، أو به مواصفات خاصة ، ترتبط بأحاديث نبوية .

٨ ـ الموقف السلبي أو مقاطعة الأسرة الصغيرة : الأب والأم والإخوة ، باعتبارهم غير مطبقين لأحكام الله .

٩ ـ وقد يصل وصف المجتمع بالجاهلية وتكفيره ، إلى استباحة العدوان عليه ، أو الاستيلاء على ما يصلح به أمر الجماعة الصغيـرة التي يؤمن بها : فهي عنده الإسلام وأصحابه فيها هم المسلمون . ومن وراءهم في مراتب بين الخطأ والتقصير والفسق والقعود والكفر .

١٠ ـ اتجاه طاقة الجماعة الصغيرة إلى حرب المجتمع الكبير دون التوجه الأول إلى حرب أو مقاومة أعداء الإسلام الحقيقيين . وحجتهم في هذا أن الحكام ، وإن حملوا اسم الإسلام ، فهم عقبة في سبيل وصول الإسلام الحقيقي إلى مستـويات القيـادة التي حققوا من خلالها الإسلام .

ولما كان واقع التاريخ في النصف الثاني من القرن الهجري الرابع عشر ومطالع الخامس عشر (أي الخمسين سنة الماضية) ، قد أثبت أن هذه الجماعات قد اصطدمت بحكوماتها وتناثرت أشلاؤها ، فقد كان في استنزاف جانب من الطاقة الإسلامية في هذا الصراع ، ما يسعد به أعداء الإسلام ، فضلا عما يورثه من الشك المتبادل بين الحاكم والمحكوم ، وما يستتبعه من انصراف الجهود إلى تأمين الجبهة الداخلية .

وحتى في القليل الذي استطاع أن يؤكد وجوده ، وأن يغير النظام الذي قام ليحاربه ، كما في الثورة الإيرانية ، إلا أنها سرعان ما اتجهت إلى حرب العراق ، وتوقفت الجبهة الشرقية للعالم العربي والإسلامي عن العطاء الإيجابي في تحرير الأرض العربية من العدوان الصهيوني .

وأود أن أقف هنا لنتساءل معاً : ما قدر الاستنزاف الذي أحدثه العنف الإسلامي ؟ ولماذا تكررت أحداثه ؟ وما الذي عاد على الإسلام منه ؟

إن هذا العنف ينشأ في العقول باسم الإسلام ، وعلينا أن نتعاون ليخلي مكانه للحكمة في العقول أولا ، وفي الحياة ثانيا .

نحن نتحدث عن الصحة النفسية في مدارسنا وبيوتنا ، وهي المهاد الأولي لتكوين الشخصية ، في نور من قول الله تعالى ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ (الشمس/ ٩ - ١٠) ، ثم نتتبعها في الحياة العامة وما فيها من مؤثرات محلية وعالمية في آفاقها الاجتماعية

والاقتصادية والثقافية والسياسية . وهـذا النسيج كله ، في حـاجة إلى دراسة ، يقع بعضها مباشرة في نطاق العمل الطبي ، وبعضها يدخل في النطاق الأوسع المقترح ، وهو « **الطب النفسي الوقـائي** » على المستـوى الإسلامي ، الذي يستهدف ـ في هذا الموضوع بالذات ـ إيجاد الحوار الإيجابي فيما بين الشباب أولا ، وفيما بينهم وبين الأجهزة الحاكمة ثانيا . الحوار الذي يشعر الطرفان أو الأطراف بجدواه ، ولا ينصرفون عنه إلى العنف كوسيلة أخيره للتعبير عن الفكرة . وهو حوار أيضا ـ إذا جاز هذا التعبير ـ مع العوامل الطبيعية والبشرية المكـونة للبيئـة من أجل تـوفير الظروف الأصلح للحياة والإحساس بالانتماء .

ثانيا

(٤) من الإلحاد والعلمانية إلى الإيمان والعلم

١ ــ إن العلمانية منهج مرتبط بالتطور الحضاري في غرب أوروبا بدءاً من حركات النهضة والإصلاح في القرن السادس عشر ، وسيراً إلى فلسفة التنوير في القرن الثامن عشر ، والحركة العلمية الصناعية في القرن التاسع عشر .

والعلمـانية بهـذا لها مكـانها وارتباطهـا العضـوي في المنـظومـة الحضارية الغربية ، وهي المنظومة التي لا تزال سائدة في عالمنا المعاصر ، واستطاعت أن تكشف أرضاً جديدة في العالم الجديد ، وأن تمد لها فروعاً في أجزاء من العالم الإسلامي .

والأصل في العلمانية ارتباطها بهذا العالم ، بالأرض والحياة المحسوسة التي نحياها . فهي لا تنبع من الدين . ولها معه موقعان : اللامبالاة أو الرفض أو العزل عن التأثير في حياة الناس . وواضح أنها نشأت في الغرب رداً على تحكم رجال الدين في حياة الناس ، تحكما امتد من الجانب الروحي إلى الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . فكان أن ظهر الاتجاه نحو تحرير الحياة من سيطرتهم ، وأن تفصل الجوانب الدينية عن الجوانب المدنية والزمنية . ومع استبعاد الدين من توجيه حياة الناس أو السيطرة عليها ، رفع الغرب لواء العقل . وتشعبت الصراعات :

بين الإيمان والعقل ، وبين الغيب والشهادة .

بين رجال الدين ، ورجال الدنيا : ونقصد بهم الساسة والاقتصاديين والمشرعين والفنانين .

بين صياغة الحياة على أساس الدين ، وصياغتها على أساس العقل والتجربة والخطأ والتطوير ، دون أن تكون هناك معايير محددة علوية كما نجد في قواعد الدين .

وأبناؤنا الذين ذهبوا إلى الغرب ، والذين قرأوا إنتاجه الفكري ، رأوا أمامهم صيغاً متكاملة من الحياة ، وخطاباً علمانياً مطبقاً . ولكنهم عندما التفتوا إلى الإسلام وأرضه وجدوا أمامهم مغالاة بالمبادىء، وحديثاً عن الأصالة ، وعناية بالتراث وإنتاجاً جزئياً . ولكن عندما أرادوا رؤية النظام الإسلامي المتكامل في مجتمعٍ ، استطاع أن يعيش كما

يفكر ، ويعبر عن آماله عملياً في حياتـه ، عندمـا أرادوا « الرؤيـة » لم يستطيعوا . فالنموذج لازال في مرحلة المبادىء والتطبيقات الجزئية ، أو طواه التاريخ :

١ ــ هناك النموذج التراثي مع تعـدد المدارس التي تتنـاوله بـالعرض والتحليل . ويكفي أن نشير في عالمنا المعاصر إلى تفسير كل من أهل السنة والشيعة للتراث ، حتى قضاياه الكبرى : الخلافة ، حروب الردة ، نظام الحكم ، منـاهج التفسـير ، تكوين كتب الحـديث النبوي .

٢ ــ وهناك النموذج المستقبلي الموعود ، الذي لازال في ضمير الغيب . والشباب موزع بين الماضي والمستقبل ، ويفتقد خطوط الحاضر أو هو يبحث عنها .

وهـو يرى أمـامه العلماء وقـد انقسموا ـ عـلى الأقل ـ فـريقـين كبيرين : أحدهما يدافـع عن التراث ، ويعـرض التاريـخ الإسلامي والحضارة الإسلامية عرضاً مناقبياً ، أكثره مدح وتمجيد ، وفريق يضع هذا التراث كله على محك النقد العقلي . ووصلت طائفة إلى المناداة حتى بوضع المقدسات من القرآن والسنة النبوية على محك المناهج العلميـة الغـربية في علوم اللسـانيات والأنثـربولـوجيا (علم الإنسـان) وعلم الاجتماع ، مع دراستها كنصوص لها مكانتها التاريخية دون قداسة تحول دون تطبيق مناهج البحث عليها .

وجانب من العلماء ذهب إلى أبعد من هذا ، فرفض الفكر الديني بكامله ومصدره الإلهي ، واعتبر الأديان من صناعة البشر ومواهب الأفراد . وأننا مسؤولون عن وجودنا فقط . وأن المجتمع أو الفرد هو مصدر الأخلاق ، لا الدين ولا السماء .

وزاد من توتر الشباب أن رأوا الذين ينادون بالدين يعيشون في أقطار لم تستطع أن تحقق تفوقا علميا في العالم المعاصر، فربطوا بين التخلف والدين ، كما ربطوا بين الإلحاد والعلمانية والتقدم .

القضية في أساسها فكرية . والفكر فيها يضم المنظومة الحضارية في شمولها وحركتها ، وقدرتها على الحياة والإبداع .

وليس المطلوب منا ولا المنتظر ، أن نكتفي بأن نقول هذا صواب وهذا خطأ ، أو هذا كفر وهذا إيمان ، أو نتخذ موقف التبرير والدفاع ، أو موقف الهجوم والاندفاع .

وإنما المطلوب أولا : أن ندرك أبعاد التوترات التي يحياها الشباب الإسلامي ، في تفاعله مع الحضارة الغربية بقطاعاتها المتعددة ، في كل من المعسكرين الشرقي والغربي ، ونظرة الشباب إلى النماذج الجديدة التي استطاعت أن تزاحم هذه الحضارة في الساحة علمياً وتقنياً واقتصادياً (النموذج اليابانى كمثال) .

ومن إدراك هذه الأبعاد ، ومن النظر في التراث تتحدد أمامنا مسؤوليات :

١ ــ كيف نعين الشباب على تثبيت إيمانه بالقضية المحورية في الإسلام ، وهي وجود الله ؟ وبالتالي ما يتصل بقضية الألـوهية من الإيمـان بالغيب والرسالات والعمل الصالح والجزاء ؟ وفي مجال الطب مادة واسعة تبين عظمة الخالق ودقة الخلق .

٢ ــ أن يأتي هذا الغرض في منهجية تعين على الإيمـان بسرد الحقـائق المجزئة أو المتتابعة . وأن الخلق له وحدة تتمثل في المجرات، كما تتمثل في الذرة والخلية . هي وحدة كُبْرى وراء التنوع الكبير الذي يتجلى في الوجود .

٣ ــ وهناك قضايا رئيسية ينبغي أن تتضح فيها الآراء ومن أبرزها العلاقة بـين : العلم والدين ، وبـين أصول التشـريع ومنـاهـج البحث العلمي وتطورها .

٤ ــ ويرتبط بهذا أمر ، وإن كنا سنشير إليه في التقدم والإبداع ، إلا أن له مكاناً في سياق القضايا الرئيسية ـ وهو « ابتكار مناهج البحث » التي تستطيع أن تقابل حاجات الحياة المتجددة . وتطور من نظرتنا إلى النفس والكون ، وتنقي التراث دون أن تزلزل أركانه .

٥ ــ وأود أن أذكر أن « القرآن » وهو المحور الأساسي الذي يدور حوله الإسلام يتعرض الآن باسم المنهجية العلمية ، والبحث الحديث ، والعلمـانية ، ومـوضوعيـة الدراسـة ، والتحرر من القـداسـة ، والعقلانية ، يتعرض باسم هذا كله إلى قراءات جديدة ونقـد ،

وتفسيرات ، ويصدر أغلبها عن معاهد في الغرب . ويحمل ألويتها علماء من أبناء الإسلام ، ومن غيرهم . وأكتفي بمثالين من نصوص ما كتبوا :

المثال الأول عن النص القرآني : وهو من بحث بعنوان « الإسلام والعلمنة » لمحمد اركون الأستاذ في جامعة باريس يقول :

«راح الخليفة الثالث عثمان (أحد أعضاء العائلة المعادية ، لعائلة النبي) يتخذ قراراً نهائياً بتجميع مختلف الأجزاء المكتوبة سابقاً ، والشهادات الشفهية التي أمكن التقاطها من أفواه الصحابة الأول . أدى هذا التجميع عام ٦٥٦م إلى تشكيل نص متكامل فرض نهائياً بصفته المصحف الحقيقي لكل كلام الله كما كان قد أوحي إلى محمد . رفض الخلفاء اللاحقون كل الشهادات الأخرى التي تريد تأكيد نفسها (مصداقيتها) **مما أدى إلى استحالة أي تعديل ممكن للنص المشكل في ظل عثمان**» .

ثم يقول بعد هذا عن موقف المثقفين المسلمين من هذه « المقولة الرسمية » التي لا يسمح لأحد من البشر أن يوجه إليها أدنى ذرة من الشك :

« إنهم يمارسون الرقابة على أنفسهم ويمتنعون عن الخوض في هذه المسائل الحساسة التي يعتبرونها سابقة لأوانها . إنهم يعتقدون أن معالجة تاريخية نقدية كالتي نقوم بها ، تخلخل التضامن المجتمعي وتهزه ، مما

يؤدي إلى ردة فعل من قبل هذا المجتمع الذي سيرد بعنف على كل محاولة من هذا النوع . هذه هي الحالة التي نعيشها اليوم . إنها ـ كما تلاحظون ـ مؤسفة . لكنها في الوقت ذاته مفهومة » .

ثم يقول عن المصادر الأربعة للتشريع الإسلامي كما جاءت في كتاب « الرسالة » للشافعي وهي القرآن والحديث والإجماع والقياس .

« ينبغي أن نثير حقيقة مهمة وهي أن هذه المبادىء الأربعة غير قابلة للتطبيق . فأولا : إن قراءة القرآن كانت قد أثارت اختلافاً تفسيرياً كبيراً . وأما الأمر مع الحديث فإن القضية أشد عسراً . ذلك أن الحديث ليس إلا اختلافاً مستمراً فيما عدا بعض النصوص القليلة التي يصعب تحديدها وحصرها .

نحن نعلم أن هناك تراثين في الحديث : التراث السُنّي والتراث الشيعي . وهما منفصلان تماماً . ينتج عن ذلك أن (الشريعة) التي يتحدثون عنها بكل تبجح ليست واحدة في أصولها عند السنة وعند الشيعة . أما فيما يختص بالإجماع الذي نادراً ما تحقق فهو عبارة عن مبدأ نظري طبق فقط على بعض المسائل الكبرى من قَبل تَشَكُّلِ النص القرآني ، الصلاة ، الاحتفال بعيد ميلاد النبي ، هكذا تلاحظون مدى الخطورة الكبرى التي تنتج عن كل تلك القصة . قصة تشكل الشريعة خصوصاً إذا علمتم أن هذه الشريعة ينبغي أن تحكم حياة كل مسلم وتصرفاته وحتى تفكيره في كل لحظة تمر من لحظات حياته » هـ[11].

المثال الثاني عن تفسير القرآن ومرجعنا فيه كتاب « دراسات قرآنية » تأليف ج . ڤانزبرو J. WANSBROUGH من جامعة لندن :

فهو لم يكتف في صدر كتابه بأن يرد القرآن ـ في بعض سوره وآياته ـ إلى الزيادة في معرفة الرسول العربي بكتاب العبرانيين (يقصد العهد القديم) . ويعتبر هذا هو التفسير الوحيد للمادة القرآنية . وهو في هذا يتابع سابقيه من المستعربين مثل نولدكه . لم يكتف فانزبرو بذلك ، وإنما حاول أن يبحث مناهج التفسير قبل الطبري ، ووضع لها أسماء من التراث التلمودي : ففي الفصل الرابع من كتابه ذكر أن أنماط التفسير القرآني خمسة :

١	الهجادي	Haggadic
٢	الحلقي	Halakhic
٣	الماسوري	Masoretic
٤	البياني	Rhetorical
٥	المجازي	Allegorical

والثلاثة الأولى تعابير تلمودية . فالهجادة هي التفسيرات غير القانونية للتلمود، بينما الحلقة هي تفسيراته القانونية. والماسوريون هم نقلة وحفظة النصوص المقدسة ، وهم الذين أدخلوا العلامات الدالة على حروف العلة وعلامات الترقيم لضبط النطق والوقف والابتداء . والحواشي والهوامش التي أضافها الماسوريون هي التي تسمى الماسورة .

فالأول هو التفسير الأسطوري ، والثاني التشريعي ، والثالث اللغوي ، والرابع البياني ، والخامس المجازي .

والذي يعنينا أساساً هو استخدام التعابير التلمودية في تفسير ودراسات القرآن في كتاب صادر عن جامعة لندن ، وتنشره مطبعة جامعة أكسفورد عام ١٩٧٧م .

ولك أن تربط هذا بعمليات « تهويد » واسعة النطاق ، تصل إلى أقدس مقدسات المسلمين وهو القرآن ، كما يحاولها الكيان الإسرائيلي فيما استولى عليه من أرض ، ومحاربة الأسماء العربية وطمسها ، حتى حائط **البراق** ، وجدنا من كتابنا من يتابع الصحافة الغربية فيما تكتب ويسميه « حائط المبكي » . وبدأ ينتشر استخدام يهودا والسامرة بعد أن طواها الزمان .

الأمر الآن هو زلزلة قواعد الوجود الإسلامي كله : في الفكر والتاريخ والحاضر والمستقبل ، ولكل من هؤلاء سلاحه وطريقه .

وإذا كان فينا من يعصمه اطلاعه من التأثر بذلك ، فما القول في شبابنا الذين يتتلمذون على أساتذة في جامعات الغرب وفي بعض جامعاتنا ، ولهم إنتاجهم المنشور ، وإصرارهم على الدعوة إلى العلمانية ، ولا يخفي بعضهم إلحاده ، ولا يخفي استخفافه بالدين عقيدة وشريعة ؟ وكل هذا باسم العقلانية وحرية الفكر .

إن الأمر ليس مصادرة على فكر ، ولا قيداً على حرية رأي .

ولكن : ألا يحتاج الأمر إلى حوار منصف ؟ وإلى مشاركة إيجابية في رصد الاتجاهات والأفكار ، وفي المساهمة في بناء مناهجنا الفكرية . وتأكيد ركائز الإسلام في نفوس شبابنا. على أساس يجمع بين الإيمان والعلم . وبين العقل والشرع ؟

وأود أن أختم القول في العلاقة بين العقل والشرع باقتباس من الإمام الغزالي ذكره في كتابه : معارج القدس .

« اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع . والشرع لم يتبين إلا بالعقل . والعقل كالأس . والشرع كالبناء . ولن يغني أس مالم يكن بناء . ولن يثبت بناء مالم يكن أس . فالشرع عقل من خارج . والعقل شرع من داخل . وهما متعاضدان بل متحدان »(١٣).

نحن في حياتنا المعاصرة في حاجة إلى إحياء جديد لعلوم الدين ، ومعايير بين الماضي والحاضر ، وبين الشرع والعقل ، وبين التصوف والشريعة، وبين الدين والعلم ، وبينهما وبين الحياة وتدفقها الفكري والعلمي الجديد .

ثالثا
(٥) من الإنحلال إلى التماسك الأخلاقي

يتفق الاتجاهان السابقان في أمر أساسي : هو غلبة الجانب الفكري ، وتكوين موقف من قضايا الحياة الأساسية مبني على المعاناة ،

راغب في التغيير وإن غلب العنف في الاتجاه الأول باسم الإسلام ، ونأي الاتجاه الثاني عن الإسلام : تحييداً أو تجاوزاً له ، أو حرباً عليه ، باسم العلمانية والعقلانية .

الاتجاه الأول يرمي إلى التضييق والحذف : هو ينطوي عن المجتمع ، ويتقوقع ، ويتضاغط ، ثم ينفجر . والانطواء يشمل الناس وقطاعا ضخما من التراث ، ولا يرى منه ، ولا يقدر فيه ، إلا فترة محددة ، هي قيام فترة الإسلام الأول ، ثم يعبر القرون (هكذا في بعض الجماعات الممثلة لهذا الاتجاه) ويرى نفسه امتدادا واتصالا مباشراً بالقرن الأول أو حاملا لمسؤولياته .

والثاني يرى هذا كله « تاريخاً » فيه « بعض » ما يصلح . وهو كله تحت الفحص والمراجعة : عقائده تحت الفحص لا في إطار القداسة . الفكر يختبر الفكر . والعقل يختبر العقل . والاختيارات والتجارب تتجدد .

ولا مجال للمقارنة بين إنتاج الاتجاه الأول ، وهو مقتصر على التداول بين الذين صنعوه وآمنوا به ، مجهول المصدر أحياناً . لا اسم لدار الطباعة أو المؤلف أو عام النشر ، وبين إنتاج الاتجاه الثاني بكل مدارسه وامتداداته ، والمساحة الرحبة التي يعمل فيها على الصعيد العالمي ، والآفاق التي يبتكرها والمناهج التي يقترحها ويطبقها ، والمواقع التي يشغلها أصحابه في الحياة الفكرية والسياسية والتنفيذية .

ويبقى اتجاه ثالث . هو في حقيقته « لا اتجاه » . هو سقوط عن الإسلام السوي وعن العنف به ، وعن الهجوم عليه . إنه اتجاه هابط إلى قاع المجتمع .

هذا هو الإنحلال الأخلاقي الذي غزا قطاعا غير صغير من شباب العالم الإسلامي ، كما غزا قطاعات من الشباب العالمي . وتحت عنوان الانحلال تستطيع أن تضع المحرمات والممنوعات والمكروهات : الإدمان على المخدرات والمهدئات والخمور ، التدخين ، الإنحرافات الجنسية ، العدوان على الآخرين بالقتل أو السرقة أو الابتزاز .

وهناك جهود عالمية وإقليمية وقومية تبذل لمقاومة الإدمان ومؤتمرات متخصصة تعقد من أجله أو من أجل جوانب منه . ولهذا سنكتفي بصورة عامة تكون عوناً على تحديد دورنا في مقاومته : فهناك ثلاث مجموعات من العوامل المتداخلة يرجع إليها الإدمان .

أولا : **العقار** : تركيبه وخواصه الكيميائية ، طريقة استعماله .

ثانياً : **الفرد المدمن** : عوامل الوراثة ، الشخصية ، الأمراض النفسية ، الأمراض الجسيمة .

ثالثا : **الأسرة والتربية** .

وإذا ما « أدمن » الفرد ، كان تحريره من الإدمان ـ إذا أمكن ـ تحت إشراف طبيبه المعالج .

ولكن هذا الفرد لن يزيد عن رقم ، في عملية حسابية عالمية

معقدة ، تبدأ من منـاطق إنتاج السلعـة ، حتى تصل إلى المستهلك ، مروراً بوسائط التصنيع ، والتهريب ، والنقل ، والتوزيع .

ولقد ازداد التعقيد عندما اتصل الادمان ، بالسياسة ، والسيطرة على الشعوب أو تحريرها ، ودخلت بعض الحكومات أو القوى المسيطرة على أجزاء من دول ، دخولا مباشرة أو غير مباشر في زراعة المخدرات والإفادة من أرباحها[١٥] .

ومن هذا التعميم ننتقل إلى تخصيص عن العالم الإسلامي :

١ ــ ففيه مناطق من أهم مراكز زراعة المخدرات .
٢ ــ وفيه مناطق من أهم أسواقها أو هي في طريقها إلى ذلك .
٣ ــ إن تسويق المخدرات ، والدعوة السافرة إلى التدخين ، زادت في العالم الإسلامي كجزء من العالم الثالث أولا ، ولامتصاص ثرواته ثانيا ، ولتدمير شبابه ثالثا .

٤ ــ إن بعض أجهـزة الإعلام والصحـافة خضعت لإغـراء شركـات السجاير العالمية ، وسمحت بأن تكون منابر دعاية للتدخين ، مع اضافة سطر نحيل ـ على استحياء ـ يحذر من أخطار التـدخين : وذلك بعد الحملة المكثفة على أخطار التدخين في الدول المتقدمة . والنجاح الكبير الـذي أحرزتـه هذه الحملة ، فصـدروا لنا السم وحاولوا إبعاده عن شبابهم بالتوعية المستمرة .

وإذا أردنا أن نسمي الأسماء بأسمائها فلنقل إنها « حملة تخريب

مخططة » قادتها المنظمات المنتجة ، والمشاركة في التصنيع والتوزيع ، وأسلحتها المخدرات والتدخين ، وميادينها ـ يهمنا منها العالم الإسلامي كقضية أولى ـ وضحاياها أكثرهم في العالم الإسلامي من الشباب .

هذا هو الباب الثالث ـ الباب الخلقي ـ في المجتمع الإسلامي الذي تتسرب منه الطاقات مع البابين اللذين سبق عرضهما .

رابعا
(٦) من التقليد والتخلف إلى التقدم والإبداع

بعد هذه الرحلة بأبعادها الثلاثة ، نحاول أن نجمع الخيوط لتتجه الطاقات من مساراتها السلبية إلى الإيجابية .

فأمامنا فجوة حضارية لا سبيل إلى تجاهلها ، ولا سبيل إلى تجاوزها ، إلا بتخطيط علمي وتنفيذ دائب وصبر طويل .

١ ــ وأول التحرك هو الإحساس بأبعاد التحدي الحضاري الذي يقابله العالم الإسلامي :
ظاهرات التخلف القائمة : نسبة الأمية ، المستوى الصحي ، دخل الفرد ، مستوى التعليم ، مستوى البحث العلمي ، عدد العلماء المبدعين ، آفاق إنتاجهم ، نسبتهم إلى المعدلات العالمية وفي الدول المتقدمة ، البحوث العلمية المعترف بها على الصعيد

العالمي ، إمكانات الحوار العلمي العالمي . كل هذه أمور نحس بها ، ولكن ما مدى إحساس شبابنا بها ؟

إن توضيح وتبسيط هذه الحقائق يزيد من إدراكهم لحقيقة الوضع الذي هم فيه ، وللمهمة الحقيقية التي ينبغي أن يقوموا بها في الحياة المعاصرة .

٢ ــ من هذا الإحساس المستنير ، والحوار فيه مع الشباب ، نستطيع أن نحول طاقات التحدي من الصراعات الداخلية فيما بين فصائل الشباب ، وما بين الحاكم والمحكوم ، إلى الهدف الحقيقي والحتمي لمن يريد تأكيد وجوده في العالم المعاصر .

٣ ــ وإن طبيعة الإسلام ، أنه في مبدئه وغايته ، دعوة إلى الإيمان والعلم . فلا تعارض بين حقيقة الإيمان والبحث العلمي والمستوى الأخلاقي الذي يتم به : فأخلاقيات العالم في الإسلام لا تنفصل عن إنتاجه .

وهذه الثلاثة تتبادل التأثير : الإيمان ، العلم ، الأخلاق .

٤ ــ هذه الثلاثة ، مع تبادلها التأثير ، تتحرك على قاعدة من كرامة الفرد في مجتمعه . كرامة ذكرها الله في كتابه وجعلها حقاً للإنسان بوصفه إنساناً . ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم** ﴾ (الإسراء/ ٧٠) فما مدى تمتع الفرد المسلم بكرامته في مجتمعه ؟

إنني أحس أن الكثير من عوامل القهر والمظالم ، كانت ولا تزال

من أهم الأسباب التي دعت نفرا من الشباب إلى الانطواء على أنفسهم ، يديرون بينهم القول في حاضر ينكرهم وينكرونه ، ليندفعوا إليه بعد هذا محطمين ، وهم يحسبون أنهم يبنون الحياة ، أو يزيلون العقبات التي تعترض طريق البناء .

من أجل ذلك علينا ألا نضع اللوم كله على الشباب في كل حوار يدور معه . وإن تنمية إحساسه بكرامته ، عن طريق الممارسة ، تجعل قلبه مفتوحاً ، ولسانه منطلقاً ، مما ييسر على العلماء الحوار معه .

٥ ــ يرتبط بهذا أيضاً صورة الماضي الإسلامي ، ومناهج عرض الحضارة الإسلامية . وهي وثيقة الصلة بما نحن فيه .

إن العرض المناقبي الذي يصور الإسلام في صورة وردية ، أو العرض الدموي الذي يصوره كشريط طويل من المؤامرات والاغتيالات التي أخذت في طريقها ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة ، ومزقت العرب بين القحطانيين والعدنانيين . ثم مزقت قريشا بين بني هاشم ، وبني أمية ، ثم بني العباس ، ثم مزقت المسلمين بين عرب وفرس وترك ومغول وأفارقة . هذا التاريخ بدوره يطرح سؤالا : إذا كان هذا هو الماضي ، فكيف يكون المستقبل ؟

إن الحضارة الإسلامية في عمومها ـ ولقاؤنا هذا في قطاع منها ـ تحتاج إلى منهجية في عرضها تفيد من مناهج البحث الأصيلة في تراثنا ومدى عنايته بتحقيق المادة العلمية ، كما تحتاج إلى مناهج البحث الحديثة

في توزيع العناية بين قطاعات المجتمع ، وإلى التركيز على التيارات الكبرى فيه ، وهي التي لا تقف عند تمجيد الأفراد تمجيداً يعلي من شأن الفرد ، إلى درجة تجعل الجموع تحس أنه هو الذي يحرك أقدار دولته . هذا الإحساس الذي يجعل منافسيه يتجهون إلى التخلص منه ، كأنه رمز العصر كله . ولعل في هذا ما يفسر كثرة الاغتيالات والانقلابات في عالمنا الإسلامي المعاصر وما قبله من عصور .

وفي إحصائية عن هذه الأحداث في العالم العربي ما بين عامي ١٩٤٨ ، ١٩٧٣ : كان عدد الثورات الناجحة ثلاثين . وعلى الأقل نحو خمسين غير ناجحة ، ومن الصعب حصر العدد ، لأن بعضها لا يعلن عنه شيء .

وكان عدد القتلى من رؤساء الحكومات ورؤساء الوزارات اثنين وعشرين . هذا إلى المحاولات غير الناجحة .

وكان عدد القتلى من كبار السياسيين أكثر من سبعين بالإضافة إلى محاولات الاغتيال غير الناجحة[١٦] .

وكأن الاستيلاء على الحكم ، هو أقرب الطرق إلى تحقيق الإصلاح والتقدم . رغم أن الأحداث أثبتت أن الدم ينادي الدم . وأن العنف يستدعي العنف المضاد .

٦ ــ يبدو من هذا أننا في حاجة إلى نظرات جديدة يتحول بها العنف إلى حكمة ، عن طريق التبصير بطول الطريق إلى التقدم ،

وحاجته إلى التعاون والهدوء والصبر ، ويتحول بها الفكر العلماني والإلحادي إلى فكر علمي ومنهجية ، لا تتنكر للدين ولا تصادره، ولا تصطدم معه . وإذا كان لكل من العلوم مجال، فنحن بحاجة إلى توضيح آفاق العلم، كما هو في الإسلام : ما مصادره؟ وما آفاقه؟ وبكل اختصار :

(١) عندنا الوحي الإلهي ، وهو المصدر الأعلى للعلم في الإسلام .

(٢) وعندنا النقل من تراث الإسلام وما قبله .

والقرآن ضم تاريخ الإنسانية في امتداده الزماني والمكاني إلى تراث المسلم . وما ذكره هو مجرد نماذج مختارة .

(٣) وعندنا العقل ، وكل ما نطلق عليه العلوم العقلية ، وما تحتاج إليه من إعمال الحواس ملاحظة وتجريبا ومقارنة واختبارا ومنهجية .

(٤) وعندنا العرفان والإشراق النفسي ، وهو في الإسلام يوزن بميزان الكتاب والسنة .

وأنت إذا نظرت إلى التراث الإسلامي في شموله وجدت هذه الثلاثة : النقل والعقل والعرفان . أما الوحي فهو المصدر الأعلى .

وأحياناً يطلق على هذه الثلاثة : البيان والبرهان والعرفان. والذي نحتاج إليه هو توضيح العلاقة بين هذه الآفاق جميعاً لتكون منابع متعاونة . ويختار الشباب لنفسه ـ ونعاونه على الاختيار ـ ليجد موقعه

الذي يستطيع أن يثمر فيه ويبدع .

ونحن محتاجون أيضا إلى أن نوضح له منابع الأخلاق في الإسلام بين المدارس الإسلامية المتعددة . ما مصدر الأخلاق في الإسلام ؟ وما ضوابطها ؟ الوحي ؟ نعم . ومعه العقل ؟ نعم . ومعه حب الخير لذاته ؟ نعم . وهذه درجات في المستويات الأخلاقية من الخوف والرجاء ، إلى الاقتناع ، إلى حب الخير في ذاته ، ولا تنكر درجة ما قبلها .

٧ ــ والآن وقد عدنا من طريق العنف إلى الحكمة ، ومن طريق العلمانية إلى العلم ، ومن طريق الانحلال إلى التماسك ، نضم هذه القوى لنتابع سيرنا في الاتجاه الرابع ، وهو هدف الحديث كله للتحول من التخلف والتقليد إلى التقدم والإبداع .

والإبـداع مبحث أصيل في علم النفس ، عميق في التراث الإنساني ؛ والإبداع أعظم ما أكرم الله بعد الإنسان بعد الوحي الإلهي .

ولقد وصف الله ذاته المقدسة بأنه ﴿ **بديع السماوات والأرض** ﴾ (البقرة/ ١١٧) فالإبداع الإلهي من العدم إلى الوجود ، والخلق بالأمر والكلمة ، والإنسان بعض خلقه . والإبداع الإنساني خلق من خلق ، لا من عدم . الأول مقام الألوهية . والثاني مقام العبودية المزودة من ربها بمؤهلات الإبداع .

والمؤمن يرى في كل إبداعه مادة شكر لله تعالى الذي منحه مؤهلات الإبداع ، ويزيده العلم والإيمان تواضعاً في محراب دينه ودنياه : المسجد ومعهد البحث ، المسبحة وأجهزة القياس والفحص، كلها أدوات يقترب بها من حقائق الكون : زيادة في مفهوم الخلق والأمر . وقد جاء الإثنان وصفاً لله تعالى في قوله ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ (الأعراف/ ٥٤) والخلق إنشاء . والأمر تسيير وحركة .

وإن في توفير أسباب الإبداع ما يعين على تحققه واستمراره . وأهم هذه الأسباب[١٧] :

- توفر وسائل البحث .
- سهولة الاتصال بالباحثين والمناظرين في نفس حقل التخصص .
- الاهتمام بما ينبغي أن نكون عليه ، لا بمجرد أن نكون، ولعل هذا هو أبرز العوامل وأولاها بالعناية .
- شعور الباحث بكرامته وحريته ، وإزالة العقبات أمام الاعتراف بكفاءته .
- سعة الأفق والسماح للآراء المعارضة أن تجد طريقها إلى البحث على موائد الحوار العقلاني .
- التشجيع الأدبي أو المادي ، أو على الأقل توفير الأمن العلمي للباحث ، قبل البحث وفي أثنائه وبعده .

(٧) خاتمـــة

١ ـ هناك دورات من الحياة يجد فيها جيل كامل نفسه واقعاً بين جذب حضارتين أو عهدين أو نظامين للحياة ، أو أكثر . ويصل التنازع النفسي إلى درجة تصعب معها القدرة على اختيار الطريق، أو شق الطريق الأنسب ، بكل ما تحمل هذه الصعوبة من اهتزاز القيم وفقد الأمن الجماعي والفردي .

ومع التطورات السريعة التي يمر بها عالمنا المعـاصر ، وفي ظـل الأوضـاع التي يعيشها الشبـاب ، تبدو ضـرورة وضع إطـار ومحتـوى « للطب النفسي الوقائي » . وهو بطبيعته مرن ومتطور ، وله هـدفان رئيسيان :

الأول : العون على تكوين الشخصية الإسـلامية المتمـاسكة، وذلـك بتحويل سلبيات الاتجاهات الثلاثة الاولى إلى إيجابيات .

الثـاني : العـون عـلى شق الـطريق نحـو التقـدم والإبـداع الفـــردي والجماعي، الذي يبدأ على مستوى وطني وإقليمي ، وينطلق إلى تعـاون إسلامي أوسـع، يكون بـدوره جزءاً من أنشـطة الإبداع العالمية .

٢ ـ وواضح أن هذا عمل جماعي : بعض دوائره تدخـل مباشـرة في النطاق المتعارف عليه في بحوث الطب النفسي والوقائي ، وبعضه

أكثر اتصالا بالبحوث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ولكن ينبغي أن تتولاه ـ جميعاً ـ يد تحركه . وإذا قال كل مختص في فرع : أنا أعني فقط بجانب من جوانب اختصاصي ، فمن المسؤول عن النظرة الكلية ، وتشخيص الصورة الشاملة للشباب الإسلامي في محنتـه الحاليـة ، وقد تنـازعته هـذه الأيدي الثـلاث : العنف ، والإلحاد والعلمانية والإنحلال الأخلاقي ؟

ومن نافلة القول أن التفسير الأحادي للظاهرات العامة ـ كقضية الشباب ـ قد أخلى طريقه أمام التفسير المتعدد الجوانب . ومع التعدد تنظيم التشخيص وتعاون الفريق .

وأرجو أن يكون هذا المؤتمر، الموطن الذين يستقبل هذه القضية الكليــة ، ثم يحــدد المستــوى الفــوقي لاستــراتيجيــة بحثهــا أو « الميتاستراتيجية » إذا أردنا اصطلاحاً معاصراً . ويقتضي هذا اتصالاً بمنظمات متخصصة . ولعلنا بهذا نخطو خطوة بعمل هذه المنظمة الموقرة إلى أفق أوسع وأرحب ، يضاف إلى ما تحمل من مسؤوليات تستهدف الانتقال بالشباب إلى آفاق الإبداعوالتقدم ،وتحرره ـ بإرادته ـ من القيود الثلاثة . وما أصعب التخلص من القيد إذا ظن صـاحبه أنـه الحريـة والإرادة . هكذا قيود الشهوات والغضب الجامح والإلحاد .

إن الإبداع ميلاد جـديد ، أبـواه : النضج الـذاتي في المبدع ، والظروف الموضوعية الزمانية والمكانية الملائمة . فهي التي تمهد للإبداع وتتلقاه عند مولده ، وترعاه حتى يستوي على سوقه .

وهو الطريق المفتوح للغد ، إذا قبلنا التحدي الحضاري وأعددنا شبابنا له . وإذا ذاق الجيل الجديد طعم الإبداع وسعد به ، أصبح هذا طريقه في الحياة . وتحول به من النظام الدائري الذي يسجل حركة دون تقدم ، إلى نظام ممتد وصاعد يسجل مع الحركة تقدماً وعطاء .

٣ ــ إن أي مجتمع يبني تنميته ومستقبله في ظل التقدم الحالي على الموارد الطبيعية وحدها ، لا مستقبل له . ذلك لأن أهم تحديات المستقبل هي كيفية توظيف الموارد البشرية ، باعتبارها رأس المال الأهم . فالثروة الطبيعية لها حدود تقف عندها ، قد تكون أقل مرونة في التعدين ، وأكثر مرونة في الزراعة وتربية الماشية . ولكن النمو غير المحدود هو في مجال البحث العلمي ، في الإبداع والتقدم العلمي والثقافي ، واعتبار الإنسان والوقت في مقدمة عوامل التقدم .

وإن العوامل السلبية تمتص حيوية الموارد الطبيعية والبشرية (تآكل الأرض ونقص الخصوبة ، يقابلها في الموارد البشرية الانحلال الأخلاقي والنظرة الاستهلاكية ، دون إنتاج) .

والإبداع لا يمكن شراؤه ولا استيراده . هو نبت ينمو في كل بيئة تتخذ له عدته وتهيىء أسبابه . ولابد أن يكون محلي الموطن والمنشأ ، وإنساني القصد .

لنا أن نقول : إنه نهر الخير الذي تغذيه منابع الحكمة والعلم والأخلاق .

وهي منابع يرتوي منها الحاكم والمحكوم ، والعالم والشاب .

٤ ــ يبقى بعد هذا السؤال :

لو تصورنا موضوعات لهذه القضية الشاملة ، أو تصورنا كتباً تعالج موضوعات أساسية فيها ، فما أبرز عناوينها ؟

فلنذكر مقترحات كأمثلة دون حصر أو إحاطة :

ــ الايمان (طريق الفطرة والتذوق ، وطريق العقل ، وطريق العلم) .
ــ العلم (النقل ، العقل ، المنهجية في التراث الإسلامي ، وفي العالم المعاصر) .
ــ جسر بين الايمان والعلم (القرآن ـ السنة النبوية ، المعرفة في الإسلام والحياة) .
ــ مناهج العمل الإسلامي (التغير في المجتمع : بين اليد واللسان والقلب ، الشمول والتخصص ، روح الفريق ، العلاقة بين الحاكم والمحكوم) .
ــ بناء الثقة والحوار بين القيادات والقواعد .
ــ الأخلاق (مصدران : الدين والعقل) ، أو المصدر الديني والمصدر القانوني ثم المصدر الذاتي .
ــ العنف في العالم الإسلامي المعاصر (أسبابه ، ظاهراته ، أخطاره ، كيفية الحوار معه وتجاوزه) .
ــ العالم الإسلامي من التخلف إلى الإبداع (مع التركيز على التخلف العلمي) .

ـ الابداع : مقوماته الذاتية والاجتماعية .

ـ آفاق الطب النفسي الوقائي ومشكلات العصر) .

ـ الإدمان (أسبابه ، ظاهراته ـ أخطاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) .

(٨) تحية إلى إقبال

وقبل أن أضع القلم أتوجه بالتحية إلى الفيلسوف والشاعر المؤمن السيد «محمد إقبال » ونحن في الأرض التي انبتته ، ثم حلقت منها كلماته في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد ختم كتابه « جاويدنامه »[١٨] برسالة وجهها إلى الشباب . وجاويدنامه هو قمة كتب إقبال ، تصور فيها رحلته إلى السماء ، وعبوره الزمان والمكان ، ليلقي رموز الإنسانية ممثلة في قادتها بين محسن ومسيء ، ثم صعوده إلى السماوات العلى . الكتاب معراج قلب وفكر وروح مؤمنة . فلنذكر وصية إقبال لولده . ولكل شاب مسلم ومناجاته لولده ولكل شاب . وأقتبس ما يلي من ختام كتابه : وقد بدأ الخاتمة بالتوصية بالأم :

يابني . . لقنتك أمك الدرس الأول .

ثم يتحدث إلى الشباب عن خضوع آسيا القارة الأم لسيطرة الاستعمار والحكام والتأثير الأوروبي . ويدعو الشباب إلى التمسك بالذكر والفكر (ذكر الله والتفكر في خلقه) وبهاتين الكلمتين يجمع بين

الدين والدنيا والسماء والأرض . ويدعو إلى إقامة النظام التعليمي على هذين الأصلين ويفصل فيهما القول .

ويدعو إلى تقوية « الذات » وهذا محور أساسي في فلسفة إقبال ، ويشرح الناموس الأخلاقي الذي يعيش به الشباب ، مع طهارة الفكر والقلب والكسب الحلال والشعور الدائم بالافتقار إلى الله . وتصور الشاب النموذجي بما سماه رجل الحق ، ودعاه إلى العمل والجهاد وحب الله ، والتخلق بأخلاق الأنبياء . إن حقيقة دين المصطفى هي المحبة والرحمة الكونية الشاملة . ويلخص أمله مع الشباب قائلا : « إذا فقدت الشباب فقد ضاع نهاري في ليل الأبد » .

إخـــواني . .

فليكن هـذا الجسر الـذي نحاول إقـامته بـين الشبـاب وعلماء الإسلام ، تحية إلى إقبال ونحن في موطنه ، واستجابة لما دعـا إليه في جاويدنامه ، ودعا إليه المصلحون . فأصواتهم الكريمة ، تنبع من مشكاة واحدة ذكرها الله في كتابه فقال داعياً رسوله ليدعو المؤمنين : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعـوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنـوبكم والله غفور رحيم** ﴾ (آل عمران/ ٣١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . . وأشكـر لكم حسن استماعكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

رئيس الجلسة : الشيخ / محمد الحبيب ابن الخوجة :

شكراً لمعالي الدكتور/ عبدالعزيز كامل على هـذه الجولـة الحرة الممتعة ،التي تنقل بنا فيها بين معالم الطريق ،ومكننا من أن نقف لحظات ، أمام قضية شائكة ومهمة جداً بالنسبة لحاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها ، هي قضية الطب النفسي الوقائي والعلاج .وقد مر بقضايا مختلفة متعددة ، وتعمق في دراسة الظواهر الاجتماعية الموجودة في مجتمعنا ،فحلل الواقع وشخص الأمـراض وبحث عن طـرق العـلاج التي إذا تـوخينـاهـا واعتمدناها تمكنا بإذن الله من الخروج من هذا الوضـع الشائن ودعم كلمة الإسلام وإعلائها .

إذا سمحتم بعد هذه الكلمة الطيبة الكريمة التي ألقاها علينا معالي الدكتور/ ننتقل فيها قرر وقدر أن يكون استراحة إلى تكريم من نقـابة الأطباء المصرية لثلة من العلماء أولهم الحكيم/ محمد سعيد ثم الدكاترة والأساتذة الحكيم / محمد حسن والدكتـور / علي السيف والـدكتور / أحمد رجائي الجندي .

شكـراً للإخـوة الكرام عـلى هذه المنقبـة التي كرمـوا بهـا العلم والعلماء .

مكتبة البحث

(١) في تحديد موضع الآية القرآنية سنذكر اسم لسورة فرقم الآية فيها .

(٢) يقول الإمام النووي في شرح الحديث : لن يشاد الدين أحد إلا غلبه : أي غلبه الدين وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه . أنظر رياض الصالحين للنووي ص ٧٨ - ٧٩ تحقيق محمد ناصر الألباني . المكتب الإسلامي ، ط ١٩٧٩م - ١٣٩٩هـ - بيروت . وذلك في باب الاقتصاد في الطاعة .

(٣) النووي : رياض الصالحين حديث رقم ١٦٧ ص ٨٨ . الجنادب والفراش هذا هو المعروف الذي يقع في النار . والحجز جمع حجزه وهي معقد الإزار والسراويل . يذبهن عنها : يمنعهن عن الوقوع في النار .

(٤) لعل نيقولا مكيافيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) الإيطالي كان أوضح من قال بأن الوسائل كلها مبررة من أجل تحقيق السلطان السياسي وتبعه كثيرون . يراجع كتابه :الأمير، تعريب خيري حماد . دار الآفاق الجديد . بيروت ، ١٩٧٩ .

(٥) التبريزي : مشكاة المصابيح حديث رقم ٥٢٦٨ ، ٢ : ٦٧١ طبع المكتب الإسلامي . بيروت . ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م .

(٦) UNESCO: Violence and its Causes, INSIGHT SERIES, 1981.

ويعالج القسم الثالث من الكتاب من ص ١٦٤ - ٢٥١ العنف الاجتماعي والاقتصادي . ويليه ملحق فيه مختارات من التقرير النهائي للندوة .

(٧) اليونسكو : المرجع السابق .

Pierre Spitz: Silent Violence pp 191-214

ويعالج في هذا البحث : العنف الصامت، مشكلات : المجاعات والتفرقة :

Famine and Inequality

(٨) في العنف بين الشباب الإسلامي ومدارسه المتعددة يمكن الرجوع إلى دراسات ومعالجات تناولت الموضوع من زوايا متعددة:

١ ـ الأزهر الشريف : بيان للناس . مطبعة الأزهر ١٩٨٤ .

٢ ـ حسن الهضيبي : دعاة لا قضاة . دار الطباعة والنشر الإسلامية القاهرة ١٩٧٧ . وهو يعرض الشبهات التي أثارها أصحاب فكر التكفير والهجرة في السجون والمعتقلات والرد عليها .

٣ ـ سالم البهنساوي : الحكم وقضية تكفير المسلم . الطبعة الثالثة . دار البحوث العلمية الكويت ودار البشير عمان ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م . وتمتاز هذه الطبعة الثالثة بفصول مضافة عن حوار دار بين المؤلف وأصحاب هذه الأفكار ، بعضه

بالمشافهة ، وبعضه بالرسائل . وفيها توثيق لهذه الأفكار يعتمد على مصادر أصيلة . ومناقشة علمية موضوعية ، تجعل الكتاب من أوفى المراجع التي عالجت الموضوع وأكثرها اتصالا بالواقع ، فضلا عن هوامشه وبها إشارات إلى مصادر أصيلة ومراجع حديثة .

٤ ـ عبدالعزيز كامل : التغيير في المجتمع بين الفرد والدولة . وهو الفصل الحادي عشر من كتاب المؤلف : مع الرسول والمجتمع من ص ٢٧٩ ـ ٣٢٣ ط مؤسسة الصباح . الكويت ١٩٨٠ . ويستند البحث إلى اتصال مباشر ، ودراسة وثائق أصيلة عن فكر الداعين إلى العنف في مصر والسعودية .

(٥) Habib Boulares: L'Islam: la Peur et'Esperance, J.T.Latte's, PARIS, 1983.

(الإسلام : الخوف والأمل) ـ ويعالج مشكلات التوتر في العالم الإسلامي المعاصر ، ويعرض أهم حركاته واتجاهاتها ، ومشكلات الأصالة والمعاصرة .

(٦)

John L.Esposito (editor): Voices of Resurgent Islam,Oxford.. University Press, 1983.

والكتاب فصول بأقلام ستة عشر كاتبا من الغرب والشرق ، كتب كل منهم في اختصاصه عن أفق من آفاق الصحوة الإسلامية المعاصرة ، الهادئة والعنيفة ؛ وموضوع الصحوة الإسلامية بعامة ، والعنف بخاصة ، من المواضيع المطروحة عالميا ، مع قضايا الشباب الإسلامي .

(٩) محمد أركون : الإسلام والعلمنة ، مجلة دراسات عربية . العدد ٥ . السنة الثانية والعشرون ص ٣١ . بيروت ، مارس/ آذار ١٩٨٦ .

(١٠) نفس المرجع ص ٣١ ـ ٣٢ .

(١١) نفس المرجع ص ٣٩ ـ ٤٠ .

وانظر أيضاً M. Arkoun: Pour une critique de la raison Islamique, Maisonneuve et Larose, Paris, 1984.

ويعرض في مقدمته كيفية دراسة الفكر الإسلامي ، ويخصص الفصل الأول للإسلاميات التطبيقية ، وهو المنهج الذي ينادي به .

(١٢) Wansbrough, J.: Quranic Studies, P. 119, Oxford Univ. Press, 1977

وقد شرح في الفصل الرابع من ص ١١٩ إلى ص ٢٤٦ أصول التفسير كما يراها معتمداً على المصطلحات التلمودية . وذلك في الفترة السابقة لتفسير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م .

وأنظر أيضاً في تحديد هذه المصطلحات :

New Bible Dictionary, 2nd edition:

PP. 1162, 1178-1179. Inter-Varsity Press, England, 1984.

(١٣) الغزالي (٥٠٥هـ) : معارج القدس في مدارج معرفة النفس . تحقيق محمد مصطفى أبو العلا ص ٦٤ . ط الجندي ، سيدنا الحسين ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٨٦م .

(١٤) عادل الدمرداش : الإدمان : مظاهره وعلاجه ص ٣٠ ويدرس في الباب الثالث ص ٣٠ - ٧١ أسباب الإدمان وسوء الاستعمال . سلسلة عالم المعرفة رقم ٥٦ - الكويت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

(١٥) انظر ملفاً عنوانه « جولة في عالم المخدرات » : ترجمة د. محمد أكرم سعد الدين : نشرته مجلة الثقافة العالمية - ٢٩ : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م - الكويت ، ويشمل مقالين :

ـ مارك ستارنتز : المتمردون والارهابيون وتجارة المخدرات ، ص ٨٥ - ١٠٢ .

ـ جون ، ويانت : المخدرات في المثلث الذهبي ، ص ١٠٣ - ١٢٦ .

وقد نشر أصل المقالات في مجلة واشنجتون كوارتر في عدد خريف ١٩٨٥ .

(١٦) John Laffin: The Arab Mind, P. 109-110, Cassell, LONDON, 1975.

وإذا كان في كتابات لافن تحامل شديد على العرب ، إلا أن الإحصاءات وحدها هي المقصودة هنا .

(١٧) Arieti, S.: Creativity, P 312-325, Basic Books, New York, 1976.

ويدرس في هذا الفصل الرابع عشر العوامل الاجتماعية المساعدة على الإبداع . ويلخصها في ص ٣٢٤ .

(١٨) محمد إقبال : جاويدنامه . وله أمامي ترجمتان إلى اللغة العربية :

محمد سعيد جمال الدين : رسالة الخلود أو جاويدنامه ، مؤسسة سجل العرب - القاهرة ١٩٧٤ . ترجمة نثرية وشروح .

حسين مجيب المصري : في السماء لشاعر الباكستان الأكبر محمد إقبال (ترجمة شعرية وشروح عن الأصل الفارسي) ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٣ .

(١٩) الترجمة الشعرية من ص ٣٠٧ إلى ص ٣٢٣ ، والترجمة النثرية ، من ص ٣٢٢ إلى ص ٣٣٧ . وتعبيرات إقبال الشعرية والصوفية ينبغي لتحديدها - ردها إلى أصول الإسلام من الكتاب والسنة ، وهي تعني بالروح والمضمون أكثر من الشكل والصورة .

(٢٠) في تراثنا - القديم والجديد - جهود كبيرة بذلت ولازالت مستمرة في تحديد مواصفات بناء الشخصية الإسلامية . وأول مصادرنا القرآن الكريم . وبه وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها خلق النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن تراث التربية الإسلامية

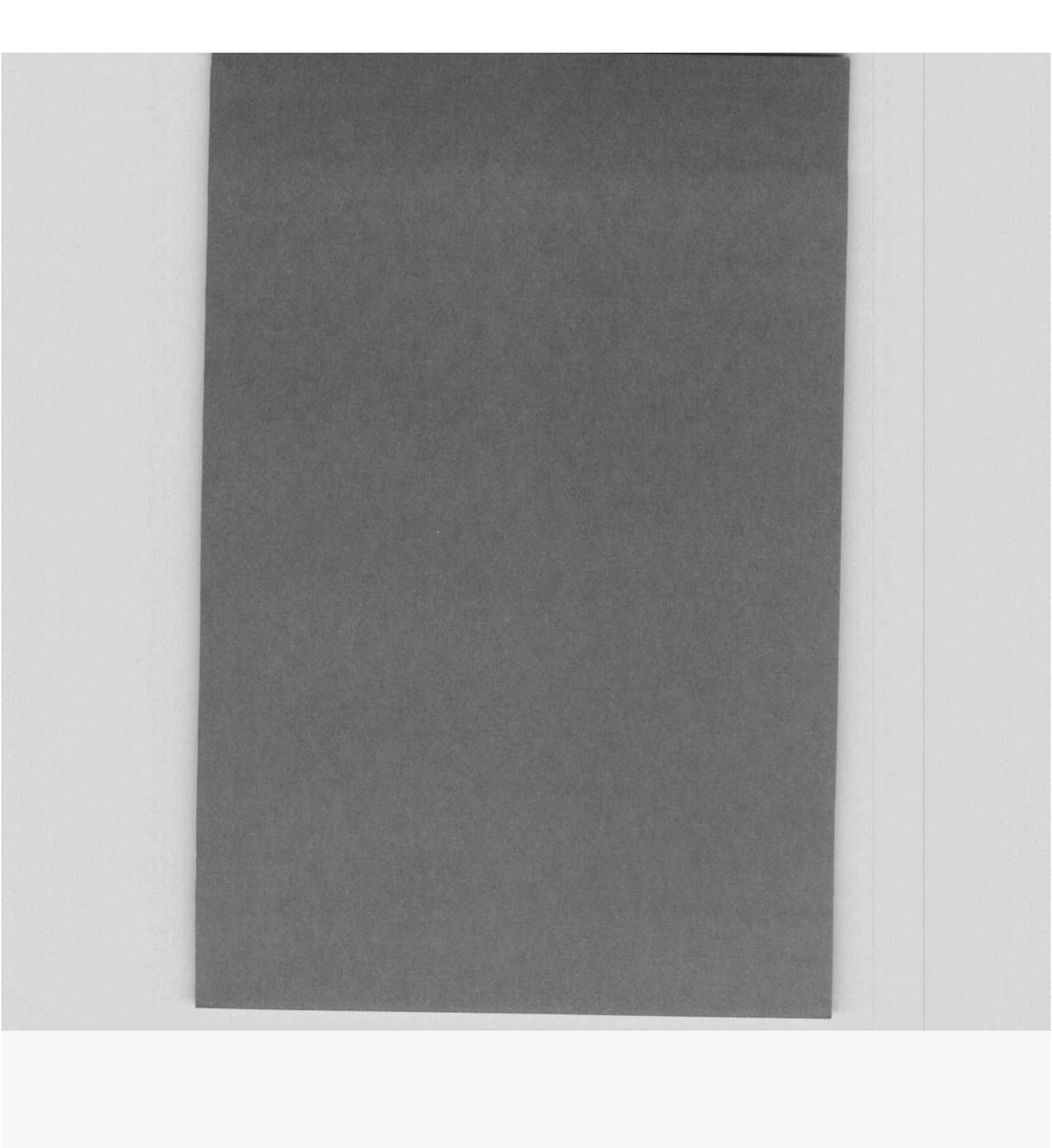
كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه (٤٢١هـ - ١٠٣٠م) وأهم مميزاته أنه يعطي تصوراً متكاملا للشخصية السوية ، وأساليب مقاومة العنف الإنساني والانحراف والاندفاع . وهو موجه إلى الإنسان حيثما كان موقعه في المجتمع حاكما أو محكوما ، عالما أو متعلما . كهلا أو شابا . ومن الحديث أذكر :

د. سيد دسوقي حسن ، د. محمد محمد سفر : ثغرة في الطريق المسدود ، دراسة في البحث الحضاري ، سلسلة آفاق الغد : القاهرة ١٤٠١ - ١٩٨١م .

وهو مع إيجازه نظرة مستقبلية موضوعية ، درست التحدي الحضاري وقيوده ، وعناصر شحذ الفعالية الاجتماعية للأمة الإسلامية . ومن المفروض في أي دراسة شاملة أن تبدأ بمسح علمي لما يعين على فتح الطريق إلى الإبداع وإزالة المعوقات من طريقه وجمع الشباب عليه بالأسوة الحسنة والتوجيه والحوار دون قهر أو تفريط .

المحاضرة الرابعة

الشباب بين البراءة والإدانة



الشباب بين البراءة والإدانة*

ملخص

أولاً : يوحى عنوان البحث بأننا في مجال الحكم للشباب أو عليه، وأن المقصود بالشباب من هم في القاعدة الشعبية دون الشباب الذى أستطاع في بعض أقطار الإسلام الوصول إلى قيادة الدولة. ولقد ذكرت في بحث المؤتمر العالمي الرابع للطب الإسلامي (كراتشي ١٠٤٧هـ ١٩٨٦م)في بحث عنوانه «جسر بين الشباب وعلماء الإسلام» مداخل أربعة للأحكام :-

(١) العلمي. (٢) الأخلاقي والديني. (٣) القانوني. (٤) السياسي.

ومسارات أربعة تتحرك فيها قضاياها :

(*) ألقيت في المؤتمر الخامس للطب الإسلامي بجمهورية مصر العربية في الفترة ما بين ٢٠ ـ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٨ ونشرت في كتاب أبحاث المؤتمر العالمي الخامس للطب الإسلامي.

(١) من العنف إلى الحوار. (٢) من الإنحلال إلى التماسك الأخلاقي. (٣) من العلمانية والالحاد إلى العلم والإيمان. (٤) من التقليد إلى الأبداع.

وتدور هذه الأربعة حول محور اقترحت تسميته «الطب النفسي الوقائي».

ثانياً: هذا البحث لو وقفنا به عند حدود الادانة والبراءة لكان من الأسئلة الأساسية المطروحة: من يدين من؟ وما الحيثيات؟ وما السلطان الذى يخول له اصدار الأحكام؟

أن الأطراف الأساسية التي تعطي نفسها، أو يعطيها المجتمع دوراً في اصدار الأحكام أربعة: (١) الشباب. (٢) الدولة. (٣) المجتمع ومؤسساته غير الحكومية. (٤) جيل الآباء.

١ ــ الشباب: ويمتد على جبهة عريضة طرفاها الأصولية بفصائلها الفكرية والتنظيمية، وحركتها الهادئة والعنيفة، إلى أطرافها اليسارية المقابلة مروراً باللامبالاه، وهبوطاً إلى السلبية والأنحلال.

٢ ــ الدولة: وهي تسمح في عالمنا الإسلامي بقدر متفاوت من حرية التعبير، ولها قدر متفاوت من تطبيقات الإسلام، ولكل منها اجتهادها، ودور الدولة في هذه الدراسة لا يقف عند حدود الأمن والقضاء، وإنما يمتد إلى التخصصات التي يقتضيها حوار خصب: كالدين والعلم، والنظرة المحلية والعالمية.

٣ ــ المجتمـع : وهو الـذى يفـرز الـدولـة والشبـاب والأجيـال المتابعة من طفولة إلى شيخـوخة، ولـه مؤسساتـه المعبرة عن اتجـاهاتـه الشعبية، وله قوته الفكرية وأجهزة أعلامه وثقله الحضاري والديني.

٤ ــ جيـل الآباء: بمـا لهم من خبرة تتـوازن بها حيـوية الشبـاب واندفاع آماله. وبالحوار يمكن اقامة جسر فوق الفجوة بين الأجيال.

ثالثاً: هذا الحوار بأطرافه الأربعة يدور في مستويين على الأقـل: محـلي وعالمي دون تعـارض بين النـظرتين، آخـذا في اعتبـاره الـظروف والمسئوليات المـوضوعيـة المحلية بـآفاقهـا الأجتماعيـة والأقتصاديـة ولها ضغوطها القوية، وتحديدها لزاوية الأمل ومدى اتساعهـا: وهو اتسـاع لا يـزيد إلا بعمـل دائب وابداع متـواصل - ورؤيـة الأقطار المحليـة في منـظور مشترك يضم العـالم الإسلامي في وحـدته الكـبرى بـين القـوى العالمية. فالتعاون الإسلامي فريضة وضرورة حياة.

رابعـاً: أما أدبيـات هذا الحـوار الصاعـد فوق التـبرئة والادانـة فأهمها في عالمنا المعاصر:

١ ــ قبول التعددية الفكرية والتعايش والعقلانية. وهو ما بدأت تأخـذ به فصائل من الحركـات الإسلاميـة، وما أخـذت به دول متقـدمة كثـيرة، وهو نص أصيـل في دستور المجتمـع الإسـلامي الأول في المدينة المنورة.

٢ ــ التمييز بين الأهداف العليا للإسلام، وبين طاقة التنفيذ الممكنـة، في حدود قدرات الواقع الصاعد إلى المستقبل.

٣ ــ التركيز على التنمية الفردية والمجتمعية.

٤ ــ الأخذ بالتخصص في أمور الدعوة والحكم: جمعا بين الأساس الأخلاقي الفردي والجماعي من ناحية، وبين النظرتين المتعمقة والشاملة في التنمية، وتمييزاً بين القدرات الملائمة لكل موقع ومرحلة: فالأقتناع غير الأقناع، وغير القدرة على التنفيذ.

خامساً: ترجمة هذا الحوار في شموله إلى مستويات تبدأ من أصول عامة تكون دستور عمل، وإلى خطة عمل تقابل التحدى الحضاري الذي يواجهه الوجود الإسلامي، وتتجه بها الطاقات إلى البناء متجاوزة الصراعات الداخلية التي تمتص الحيوية الإسلامية.

وفي البحث تفاصيل ذلك.

(١) أطراف البحث

السؤال الأول الذى يطرحه عنوان البحث هو:

ـ مَنْ يُدينُ مَنْ؟ أو: مَنْ يُبرِّىء مَنْ؟

وإذا كان الحديث عن تبرئة وإدانة، فهو إصدار حكم. ولكل حكم قانون أو قاعدة يستند إليها، ومن طرفين ـ على الأقل ـ يتحاوران: أحدهما الشباب، فمن هو الطرف الآخر؟ هل هو الدولة؟ هل هو الدين ومؤسساته؟ هل هو الرأى العام؟ أم هو حكم فريق على فريق من نفس القطاع؟

فهذه أركان ثلاثة: شباب، طرف آخر، قاعدة أو قانون يستند إليه الحكم. هى زوايا مثلث لا يكتمل إلا بها معا. فلننظر فى أوضاع هذه الزوايا:

ـ ضع الشباب والطرف الآخر فى زاويتى القاعدة، وضع القانون الذى يحكمهما فى الرأس، تحسّ الاستقرار المؤدى إلى سلامة الحوار، والصعود بالحاضر إلى آمال المستقبل، إذا كان القانون فى ذاته عادلا، وتطبيقه سليما.

ــ ضع الحاكم فى زاوية الرأس، وانزل بالقانون إلى إحدى زاويتى القاعدة، تحس الاستبداد المؤدى إلى الضغوط والقلق.

ــ ضع الشباب فى زاوية الرأس، فوق القانون والدولة، ترى الاضطراب الذى تضيع معه قوة القانون ونظام الدولة معاً.

ومن صدر الإسلام كان القانون هو الأعلى، ونزل القرآن الكريم حاكما ومهيمنا. وصدق الله العظيم:

﴿ **إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما** ﴾ (النساء: ١٠٥): أى لا تكن مدافعاً عنهم.

وفي سيادة القانون تكون العلاقة بين الشباب والطرف الآخر، ولنبدأ بالدولة، علاقة تعاون. إن شاب اليوم هو رجل الغد، وهو طفل الأمس. وإن حاكم اليوم ـ فى نضجه ـ سيفسح المجال لأجيال جديدة، تتدرب على المسئولية فى مواقعها المتعددة ليحملها فى غدها. وإن جانبا كبيرا من إنجازاته هو نجاحه فى إعداد صفوف القيادات. جيل يأخذ بيد جيل، من الكبير عون، ومن الشباب عرفان بالجميل، ودماءٌ فتيّة تضاف باستمرار إلى

أجهـزة المسئوليـة. والآبـاء المؤسسـون لهم الـود والتقـديـر. ومن الجانبين تطوير مستمر للحياة.

هذه هي الصورة العامة لأركان هذا المثلث وتوزيع الزوايا، وعلاقتها بالاستمرار، والتغير الهادىء أو المضطرب.

ولكن المجتمـع أكثر تشـابكا، وقـواه أكـثر تنـوعـا من هـذه الصورة الأولية: فقد تتعدد قوى الشباب أو تتعدد وجهات النـظر فى الأجهـزة الحاكمـة. وينقلنا هـذا من صـورة المثلث إلى صـورة الهرم، ومهما تعددت زوايا القاعدة، فنود أن تكون القمة الواحدة هى القانون الذى يتحاكم إليه الفرقاء، وإليه يفيئون.

هذه القمة قد تكون وحيا، وذلك عنـد أهل الأديـان. وقد تكون تعاقدا اجتماعيا عند غـيرهم نابعـا مما يـرتضيه المجتمـع، أو يعيش به. وقد يتـلاقى الوحى والـتراضى. فإذا كـان الأمر دينـاً، ففى الاجتهاد والحوار ما يستطيع أن يستجيب لحاجـات المجتمع. وإذا كان تعاقـداً اجتماعيـا، فهناك مجـالس التشاور ولهـا مسمياتهـا المتعـددة: مجلس الأمة. الشعب. النـواب. الشيـوخ. الشـورى. أهل الحل والعقد. الحكماء.. وهناك الحَكَم بين هؤلاء وهؤلاء فى مستويات القضاء والفقه الـدستورى فى أعـلى مستويـاته؛ هـذا إذا كان اسلوب الحوار والتَّأْصِيل والرجوع إلى القواعد وتطويرهـا عن طريق قنواتها، محل قبول. وهذا هو المأمـول. ولندع الآن صـورة الهرم، لنعود إليها بعد حين.

(٢) مناهج الحكم فى أمر الشباب

ذكرت فى بحث المؤتمر الرابع (كراتشى/نوفمبر ١٩٨٦)[١] بعض مناهج الحكم التى يمكن أن نتناول أى قضية بها، ولها هنا إضافة ومراجعة:

١ ــ **المنهج القضائى**: ويدور فى إطار القانون، وله حدّان: البراءة والإدانة.

٢ ــ **المنهج العلمي**: ويدور فى إطار البحث العلمى. وله حدّان: الصواب والخطأ، وبينهما احتمالات.

٣ ــ **المنهج الأخلاقي**: ويدور فى إطار القيم التي يرتضيها المجتمع لنفسه، وله حدّان من الخير والشر.

٤ ــ **المنهج الديني**: وهو قريب من المنهج السابق: ويدور فى إطار الشريعة، والوحى أساسها، وله حدّان من الحلال والحرام، وبينهما درجات من الاستحباب والإباحة والكراهة والإتقاء.

إن من أهم ما يميّز أى دين، الناموس الأخلاقى الذى يتعامل به، وفيه مقابلة بين الخير والحلال والطيبات من جانب، وبين الشر والحرام والخبائث من جانب، وبينهما مشتبهات يتقيها العاقل استبراءً لعرضه ودينه؛ يقول الله تعالى: ﴿ **وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا: خيرا. للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير، ولنعم دار المتقين** ﴾ (النحل: ٣٠).

ويقول تعالى: ﴿ **يسألونك: ماذا أحل لهم؟ قل: أحل لكم الطيبات** ﴾ (المائدة: ٤).

٥ ــ ثم هناك **النظرة الأمنية**. ودائرة العمل فيها أوسع من دائرة القضاء. وهدفها استقرار المجتمع، وهى تتحسس المشكلات قبل وقوعها، لتحول دون هذا الوقوع. ولها نشاطها قبل القضاء وبعده. وتتولاها فى كثير من الدول، أكثر من هيئة واحدة فى الأنشطة الداخلية والخارجية.

٦ ــ وإذا كان الاستقرار أو الاضطراب «صورة» مجتمع، فإنّ له أسبابه المتداخلة، ويبرز من بينها **العامل الاقتصادى** فى مجتمعاتنا المعاصرة، بحيث أصبح الحكم على الحكومة ذاتها، أو النظام، والموقف منه، شديد التأثر بمدى قدرته على تحقيق الأهداف الاقتصادية التى وعد بها الشعب، أو يتمناها الشعب، ومدار التقييم هو الربح أو الخسارة، القدرة أو الاحتياج، وانعكاس ذلك على الحياة اليومية للمجتمع بطوائفه وقواه، دون استئثار إحداها بالنصيب الأكبر على حساب الآخرين. والشباب قطاع حساس فى المجتمع، وفى أكثر من حالة، كانت أسباب القلق الاجتماعي، والصدام بين الشعب والدولة، اقتصادية، تتعلق بأسعار الأقوات ومدى توفرها، وحجم فرص العمل المتاحة، والطاقة الشرائية للأفراد والأسر، ومدى ضيق أو اتساع الأمل في حياة أفضل. وهذه جميعا حصاد عوامل طبيعية وبشرية، تخْلية

وعالمية، تتشكل فى مستوى حضارى. وحديثنا هنا لا يتجه إلى قطر بعينه، وإنما يعرض الأسباب والعوامل فى عمومها، ولها صورها التطبيقية فى العالم الإسلامى وغيره.

٧ ــ ولك أن تقول إن **الحكم السياسي** ـ فى شموله ـ لا يختلف عن الحكم على الاقتصاد، وحدّاه النجاح أو الإخفاق فى تحقيق وعوده ومطالب الشعب، وتوفير الاستقرار والتقدم معاً.

وهذه المناهج، بعضها ممكن التحديد ـ نظريا ـ وهى ـ واقعيا ـ متداخلة متبادلة التأثير. ولكل قطاع من المجتمع عنايته بمنهج أو أكثر، مما يجعل الدراسة والتحليل ثم التركيب، مدخلا لاقتراح حلول أساسية فى أى قضية من القضايا، وبخاصة إذا كانت قضية متشابكة الفروع عميقة الجذور، ممتدة التأثير كقضية الشباب، لا ينفرد بها رأى واحد، ولا قطاع واحد، ثم هى فى التنفيذ تتخطّى حدود أي وزارة يعينها لسريانها فى المجتمع كله.

(٣) والتخصص ضرورة فى أى دراسة متكاملة

تحدثنا عن مثلث وزواياه، وعن هرم وزوايا قاعدته ومعها تعدد وجوهه، ثم قمته الواحدة، وتحتاج الصورة إلى مزيد من التوضيح:

هناك قوى عند قاعدة الهرم. وقانون عند القمة، فما الصلة الحميدة بين قوى القاعدة والقمة؟

هنا تبرز أهمية التخصص، ذلك الذى يعنيه القرآن الكريم فى أكثر من آية كريمة، يقول تعالى: ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ (النحل: ٤٢)

ويقول: ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ (النساء: ٨٣)

وإذا كان مدار الدين بين النقل والعقل وفيه الاجتهاد، فإن أمور الدنيا، قال فى شأنها المصطفى عليه الصلاة والسلام، مخاطبا أصحابه والأجيال من بعدهم «أنتم أعلم بأمر دنياكم» (رواه مسلم عن أنس)[٢]. وكلمة «أعلم» لها ثمرتان: الأولى: مسئوليتهم عن أمورهم الدنيوية، والثانية: أن يتولى المسئولية من يحسن القيام بها. وفى هذا دعوة إلى المعرفة فى شمولها، وإلى التخصص فى آفاقه التى تصلح بها أحوال المجتمع. وهى آفاق مفتوحة بغير حدود، وتمثل ـ عمليا ـ التحدى الحضارى الذى يقابله الإسلام فى حياتنا المعاصرة.

وإذا كان الغالب على زوايا القاعدة فى الهرم المقترح القيام بمسئولية حاضرة أو منتظرة، وكان القانون هو الفَيْصل، فإن كُلًّا من قاعدة الهرم بزواياها، وقمة الهرم فى توحدها، فى حاجة مستمرة إلى الاستجابة لمتغيرات الحياة؛ مما يدعو إلى وجود شريحة وسطى بين القاعدة والقمة، هى شريحة «المتخصصين الباحثين»، وتتجمع عندها رغبات القاعدة ونتائج حوارها، وتتولاها بالتحليل

والدرس، وتقوم باقتراح تطوير القمة ـ وهى قوانين المجتمع ـ بما يستجيب للصالح من هذه الرغبات، ليظل القانون حيا بعيداً عن الجمود، ولتطمئن القواعد إلى أن رغباتها تجد طريقها المشروع من الدراسة والفحص، وتعود بعد هذا إلى الهيئات التشريعية فى حوار متصل، يتعدل به القانون الذى يضبط حركة المجتمع، ويتحاكم إليه الأطراف، فإذا المستويات الثلاثة فى حيوية، وتتبادل أجهزتها وقواها التأثير، وتتعاون معاً على الصعود بالحاضر إلى آمال الغد.

(٤) ويستمر الحوار . .

من الخير إذن أن يكون الاستماع لرغبات القواعد أمراً مشروعاً ومنتظماً، وأن يكون احترام القانون والتخصص محل قبول، وأن يكون الحوار مستمراً بين المستويات الثلاثة.

وفي كثير من أقطارنا الإسلامية، لازالت لقاءات الشباب معزولة عن لقاءات الكبار، إلا في جلسات عابرة أو متباعدة، تحكمها المناسبات. بينما في الدول المتقدمة، إذا ما درس الشباب موضوعاً حيوياً، وليكن ـ كمثال ـ اقتراحات في التطوير الجامعي، ومدى استجابته لواقع الحياة وآمالها، توفرت الفرص لممثليه أن يحضروا لقاءات مع المستوى الأعلى أو مع أفراد أو لجنة منه، ويتم هذا عندهم في إطار الأنظمة أو التقاليد الجامعية والسياسية،

كما تتم لقاءات بين منظمات الطلبة أو ممثليهم وأعضاء من المجالس التشريعية وأجهزة الإعلام، مما يزيد الشباب اطمئنانا إلى ما تنتهي إليه الدراسات من قرارات.

والمشكل في أكثر من قطر إسلامي، أن قنوات الاتصال ضيقة، وأحيانا مغلقة بين الشباب وأصحاب القرار. وتستطيع أن تتصور آثار تجمع الضغوط في القاعدة، وضيق القنوات، وما يؤدي ذلك إليه من اندفاع شديد في التعبير. فما بالنا إذا كانت القنوات مختنقة، أو مغلقة، وليس أمام هذه الضغوط إلا أن تحاول التنفيس عن ذاتها، في أي اتجاه، وبأي صورة، ولو كانت انفجارا؟!.

ونحن مع الحوار محتاجون إلى ترشيده. ولا نود أن نترك الشباب لأنفسهم، يفكرون وحدهم، ويعودون - إذا كان الأمر أمر دين - إلى المراجع دون توجيه وتعاون. فلكل علم أصوله وقواعده. وأكثرها تعقيداً تطوير المجتمع، ولكل مجتمع إمكاناته التي يتحرك في حدودها.

ويكفي أن نعود إلى كتاب مثل «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل» للإمام ابن حزم الأندلسي، أو كتاب «الملل والنحل» للإمام الشهرستاني لنرى الفرق الإسلامية، وما بينها من خلافات؛ ثم نعود إلى كتب التاريخ، كتاريخ الطبري أو الكامل لابن الأثير أو تاريخ ابن خلدون، لنرى الصراعات العنيفة والدامية، التي

دارت بين هذه الفرق، والتي حل فيها السيف في ميادين القتال محل القلم واللسان، في حلقات العلم والحوار. وتاريخنا الدامي قديم، يرجع إلى عهد الخلافة الراشدة.

(٥) وماذا يحدث في غياب الحوار؟

لقد أتيح لي أن أراجع أدبيات أكثر من فريق من الأصوليين، ومناهج جماعات إسلامية، فوجدت فيها خطا يكاد - وأقول يكاد - أن يجمع بينها : رفض المجتمع الكبير أو على الأقل شدة الإحساس بحاجته إلى التغيير. انطواء بعض الأصوليين عنه. الانفراد بالقرار. ويصل الأمر أحيانا إلى مصادمة المجتمع في صورة غير متكافئة ومفاجئة، بكل ما تحمل من آثار وخسائر، وماوراءها من اعتقالات وتحقيقات، تكون دائرتها - في كثير من الأحيان - أوسع من دائرة أحداث الصدام ذاته، وتترك في النفوس والعقول أحقاداً ورواسب، تكون أحياناً خمائر ومبررات لصدام جديد..

ولا أكاد أفرق كثيراً بين التأثير النفسي للانطوائية دون حوار، والاكتئاب، والسجن الانفرادي، وانغلاق جماعة صغيرة على نفسها، تحدد غذاءها العقلي وقيادتها الفكرية، كأنها تعيش في عالم صنعته لنفسها، وكل الذي يربطها بالعالم الخارجي الحاجة إلى الطعام والشراب والملبس والمال، ثم السلاح تدفع به

وتهاجم، ثم تنفجر في صورة مأساوية لاتعدو أن تكون أسلوبا في الانتحار بيد الغير.

هذه الظاهرة - وأقول الظاهرة - منتشرة في أكثر من قطر إسلامي. وهي إفراز لأسباب، علينا أن نتناولها تناولاً علميا يرتفع فوق مستوى الإدانة والبراءة - دون أي تعطيل لمسئوليات الأجهزة - إلى مستوى الحوار والتخطيط والعلاج الذي تضيق به مساحة الإدانة، وتتحول إلى المشاركة الإيجابية في صناعة الحياة.

(٦) الشباب بين الاعدادين العلمي والديني

ولنضع المشاركة في الاعداد على مائدة البحث:

ولنبدأ في عالمنا المعاصر بالعلاقة بين الإعدادين العلمي والديني. وقد يوحي الحديث عن أفقين علمي وديني، بوجود فجوة بين العلم والدين.

إن الدراسة العلمية أكثر عنايتها بالأسباب معرفة وتحليلا وتركيبا، بينما الدراسة الدينية أكثر عنايتها بالغايات. وفي الإسلام جمع بينهما، وعناية متوازنة بالأسباب والغايات معاً : يقول تعالى ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**﴾ (العنكبوت : ٢٠) ويقول تعالى ﴿**وأن إلى ربك المنتهى**﴾ (النجم : ٤٢).

والعلم ـ في الإسلام ـ يضم الوحي الإلهي، وهو أعلى مصادر العلم ـ وعلوم المنقول والمعقول. وهو بهذا مفتوح على التراث الإنساني في شموله، وعلى الإبداع في آفاق النفس والكون. ولهذا لم يشعر علماؤنا ـ في عصور تقدم الحضارة الإسلامية ـ بأي بُعد عن أصالتهم وهم يطلبون أي علم. يقول تعالى **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فاخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء. إن الله عزيز غفور﴾** (فاطر : ٢٧ ـ ٢٨) ففي الآية علوم الأجواء (المناخ والطقس) والنبات والصخور والحيوان والإنسان. وإنّ هذه المعرفة ـ طلباً وتدبراً ـ تزيد الانسان خشيةً من الله. كما يدعوهم القرآن إلى الحركة في الأرض. **﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾** (الملك : ١٥). ويدعوهم مع الاستزادة في العلم إلى اتباع المنهجية في قوله **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾** (الاسراء : ٣٦).

هذا ما كان، وما نحن مأمورون به.

أما ما هو كائن : فلقد ازدادت الفجوة اتساعاً بين شبابنا والعالم من حولنا. هذا عصر الثورة المعرفية، أو الانفجار المعرفي،

الذي أصبح يقاس فيه التقدم بالإبداع، وهو في سباق سريع مع الزمن. ولننظر ـ كمثال ـ إلى «الحاسبات» وما حققته أجيالها الأربعة السابقة، ونحن على مشارف الجيل الخامس (١٩٨٨) المشارك في التفكير، لا مجرد اختصار زمن العلميات الإلكترونية التي صمم لأدائها.

ولا مجال هنا للحديث عن مجد قديم، ودورات ازدهار حضاري أصبحت تاريخاً بعد أن كانت في وقتها حاضراً مزدهراً، ولسنا في مواقف التفاخر والتكاثر. وإنما الحديث عن حياة حاضرة نابضة بالحيوية والعطاء، قائمة على الإعداد والجهد والمشاركة لمواجهة تحديات أمامنا. . في أرضنا وسمائنا التي تسبح فيها الأقمار الصناعية تجمع عنا وعن غيرنا المعلومات وتحللها، وتضع خططها على أساسها. . ونحن ـ وآسف أن أقول ـ لازلنا نتناقش في الرؤية البصرية أو العلمية لهلال رمضان، ولسنا ـ حتى الآن ـ على كلمة سواء في توحيد شهر الصوم وعيد الفطر، وأحياناً يصدر قرار تحديد عيد الأضحى بعد بدء شهر ذي الحجة بأيام.

وأخشى أن أقول: إن كتاب الله الذي بين أيدينا، نستورد أوراقه ومطبعته من خارج العالم الإسلامي. أما الوحي فهو من عند الله. وأما المعرفة والتطبيق فهي مسئوليتنا المشتركة، ونحن بمستواها أدرى.

نحن قد تركنا النظرة الشاملة للتحدي الحضاري المعاصر، وتركنا إعداد شبابنا لها. هذه النظرة التي أدركتها من الدول الكبرى والمتقدمة العملاقان الكبيران، وغرب أوروبا، واليابان، وكندا.. ومن الدول الصاعدة إلى هذا المستوى كوريا الجنوبية وتايوان. ومن الدول الصغيرة سنغافورة.. وغيرها على طريق التقدم، مع المحافظة مع شخصيتها الحضارية: أصالة وتجاوبا مع متغيرات الحياة.

ولننظر إلى إنتاجية الفرد هناك، ونقارنها بإنتاجية الفرد في ديار المسلمين، ولنستحضر انعكاس هذا على نفسية جيل بأكمله.. ولا إنتاج دون إعداد. ولا إعداد دون مدارس توازي العصر أو تحاول. ولا قبول للتحدي إلا بعد الإحساس به وبمسئولياته.

ولنا أن ننظر إلى السلم التعليمي في وطننا الإسلامي: سنواته ومادته ومناهجه وحصاده.. والوثائق الحية - أبناؤنا - في كل بيت، وأمام كل عين.

ولازلت أذكر صديقا جمعنا العمل في مجلس الوزراء وفي لقاءات دولية علمية. وكان من حديثه عندما لقيته في الأمم المتحدة:

ـــ لم أعد أعني كثيرا بمسميات المذاهب بين شرقية وغربية. لقد هجرتها إلى مسمى جديد، هو «الإنتاجية». ما قدرة الفرد

على الإنتاج؟ وما قدرة المجتمع؟ والمجتمع : قدرات أفراد وتنظيم. يقول الصديق : لقد عملت معي سكرتيرة واحدة في الأمم المتحدة، أغنتني عن مكتب من عِدّة موظفين كانوا معي في القاهرة، وجزء من طاقتهم مستهلك في النزاع على الاختصاصات والمخصصات. وأشهد أنها وحدها كانت أكثر منهم إنتاجا وأوسع فهماً لعملها : تجيد عدة لغات. متمكنة من استخدام الأجهزة الحديثة. سريعة الاستجابة والأداء. دقيقة في مواعيدها. ثم ابتسم قائلا : فضلا عن أنها فرد واحد، له معدة واحدة، ومسكن واحد، ويشغل مكانا واحدا في أي وسيلة مواصلات. وعلى هذا الأساس تستطيع أن تدرك قيمة الفرد: فالنمو السكاني عندهم رأسي أساسا، يتمثل زيادة في الكفاءة والعطاء بكل ما يحمل من كرامة الإنسان، وليس أفقيا يتمثل في زيادة عدد السكان، بكل ما يحمل الانفجار السكاني من مشكلات وإحباط.

والآن : كيف تشتد التيارات الدينية، مع هذا المستوى العلمي الذي عرضنا لمحات منه؟ ثم كيف يشتد تمزق الشباب وتتعدد الاتجاهات؟

(٧) تيارات الشباب

من الخير أن نصارح أنفسنا أن إعداد الشباب للحياة عندنا لا يرقى إلى مستوى العصر، ولا يعين الشاب على الوقوف بأقدام

ثابتة على أرض الواقع. ومهما قلت عن أهداف التعليم في رفع كفاءة الفرد، وقدرته على التعامل مع الحياة، وتذوق المسئولية، وزيادة الأحساس بجمال الكون وجلاله ، وغرس قيم الإيمان والعمل.. فلا يمكن أن تتجاهل منها هدفاً أساسياً هو «توفير مورد رزق للمتعلم».

وإذا كان الإعداد دون مستوى الحياة السوّية، كان الإحباط الذي يدعو الجيل إلى أن يتلفت حوله باحثاً عن أمل، أو مخرج جديد، أو نور في آخر النفق المعتم، وهنا تتعدد المسالك والاتجاهات :

١ ــ سيحاول العنصر القوي القادر أن يبحث عن موطن جديد تتوفر فيه فرص علم وعمل أفضل، بكل ما يقتضيه ذلك من كفاح شاق وصبر ومخاطرة. وهؤلاء هم المهاجرون الذين ينزحون إلى مواطن الريادة الجديدة أو المفتوحة أو الممكنة، وبخاصة في الدول المتقدمة، وبعض الدول النامية التي فيها لهم فرص أفضل. هؤلاء الذين نذكر معهم أبيات الشريف الرضى وقد قالها قبل أكثر من ألف عام[٣] :

وانهض فإن لم تَحْظ في بَلَدٍ بالرزق، فاقطَعْه إلى بلدِ
إمّا يُقال سعى فاحرزها أو أن يقال مضى ولم يَعُدِ

٢ ــ فريق كبير يشغله الصراع اليومي ـ غير المتكافىء ـ في سبيل القوت، يرى بعينه أكثر مما تصل إليه يده. وما تصل إليه

يـده لا يكفيه. ولنـا أن نقدّر مـا يورثـه هذا في نفسـه نحـو المجتمـع في شمـولـه، وأجهـزتـه القـادرة والحـاكمـة عـلى خصوصها.

٣ ـ فريق تتوفر له أسباب الحياة بموهبة ذاتية أو قاعدة أسرة قويـة ينطلق منها. والأسر القادرة في أكثر الأقطار ـ إن لم يكن فيها جميعاً ـ تتكون منهـا «صفوة» هي الأقـرب إلى السيـطرة عـلى مقدرات الحياة ـ حياتها على الأقل ـ مع تغير الأنظمة. وهؤلاء فـريقان : فـريق تشغله متعة الحيـاة والنجاح فيهـا، أو حيـاة المتعة والانغماس فيها. فريق كاسب وفريق مبدد..

٤ ـ فريق ينغمس في مشكلات الحياة العامة نقداً واقـتراحاً، بينـما يحمله مستـوى المجتمع عـلى أمواجـه، غـير نـاظـر إلى نقـده واقتراحاته.

٥ ـ فـريق يرفض تَـدَنّي المجتمع ويتخـذ مـوقف الإصـلاح فيـه، والرغبة في التغيير. هذا العنصر الحركي القادر عـلى الارتفاع فـوق جواذب طعـامه وشرابـه، ومسئوليـات يومـه إلى غـده، والقادر على الاتساع بدائرة عنايته إلى غيره.. هو الأقدر على التأثير وتحريك المجاميع السلبيـة، أو ما أصبحنـا نطلق عليـه الأغلبيـة الصامتـه. ولكن حين تتحـرك تحت ضغط الجوع أو البطالة أو الإحباط ، فإن الكثير من تحركـاتها عنيف مُـدَمِّر، والنماذج في أرضنا وحولنا، بـل أحيانـا في بعض أقطار العـالم

المتقدم، طلبا للمزيد من القدرة على مقابلة تطورات الحياة، كما حدثت في ثورات الطلبة في فرنسا وألمانيا عام ١٩٦٨. ويتخذ الراغبون في التغيير والقادرون على المساهمة فيه ـ بالفكر أو بالتنظيم ـ قواعد انطلاق من الدين أو العلمانية أو الوطنية القائمة على مقومات الأصالة.

٦ ـ وأحيانا يؤدى الإحباط ـ كما يؤدى الترف ـ إلى فساد وإفساد. وأمامنا الانحرافات الأخلاقية والخمور والمخدرات، وقد أصبحت أوبئة عالمية، ووصلت أخطارها فى أقطارنا العربية والإسلامية (كما فى العالم الغربي) إلى المدارس والنوادى الرياضية، وتجمعات الشباب. وعن طريق الإغراء والإدمان انتشر سرطان المخدرات (جنبا إلى جنب مع تشجيع التدخين والدعاية له للأسف) إلى شباب لم يتوفر له ما يملأ عليه حياته من أشواق العلم والرياضة، والإدراك الصحيح لقيمة الصحة والمحافظة عليها باعتبارها من أكبر المنح الألهية والثروات الإنسانية.

فقط للتذكرة، أطرح السؤال: أين الإدانة والبراءة فى هذه التيارات؟ وأين حدود المسئولية بين أطراف الحوار؟ وأدع الإجابة إلى حين، لنتناول الاتجاهات الدينية بشيء من التفصيل.

(٨) الراغبون فى التغيير باسم الدين

التغيير باسم الدين من أوضح سمات الصحوة الإسلامية المعاصرة، هنا حيث يجد الشباب الطريق مفتوحا إلى السماء، وعلى مجد الإسلام وأبطاله، وشهدائه، ويجد الفرد فيه قيمته الذاتية. ولكن ما الخطوات إلى تحقيق الأمل، وتحويل الصحوة إلى واقع ملموس؟

أحس عند هذه المرحلة من الحديث أننى أسير على أسنان المشط، كما يقول بعض علمائنا:

ذلك لأن نقد وتقييم أعلام هذا الاتجاه الإسلامي (والنقد بيان الصحيح من الزيف) يثير من المشكلات أكثر مما يطرح من الحلول، وبخاصة إذا مس النقد من ذاقوا الظلم تغريبا وسجنا واضطهادا وقتلا، وليس فى تجاوز الأسماء ما يتنافى مع أمانة البحث العلمى، فالذى يعنينا الآراء والاتجاهات فى ذاتها. وسأذكر بعض النماذج والمراجع في مكتبة البحث لمن أراد المزيد من المتابعة[٤]:

١ ــ منهم من أكد ضرورة الوصول إلى الحكم أولا، وعندما تتولى الأيدى والعقول المؤمنة القيادة تستطيع أن تقدم الحلول، لأنها بسبيل تغيير المجتمع تغييرا جذريا، ورموا المجتمعات القائمة بالجاهلية، وأننا في حاجة إلى بدء جديد.

٢ ـ وآخرون عرضوا الإسلام عرضا أصوليا مجملا مبسطا، يعتمد على سياسة النفس الطويل، وإن انطلقت منه فصائل لم تستطع معه صبراً، واتجهت إلى العنف وأحرقت نفسها كالنيازك، وكان أكثر حديث أصحاب التربية الطويلة عن قدرة الإسلام على حل مشكلات العالم، بينما واقع المسلمين كما نرى. وكان النقد القريب: ولماذا لم تصلحوا أنفسكم؟ وكم جنت علينا كلمات المديح من بعض قادة الفكر في الغرب، مثل كلمة برناردشو «ما أحوج العالم إلى رجل كمحمد يستطيع أن يحل مشكلاته بينما يتناول فنجاناً من الشاى» ونبينا عليه الصلاة والسلام أسوة لا تتكرر، فهو خاتم النبيين، ولم يكن يحل مشكلات مجتمعه وهو يشرب الشاى أو القهوة. ولقد وصف الله الرسالة بقوله مخاطبا رسوله لأول الوحى ﴿ **إنّا سنلقى عليك قولا ثقيلا** ﴾ (المزمل: ٥). واذكر عالما جليلا أكن له كل التقدير والاحترام وعرفان الجميل، كان يلخص إصلاح المجتمع فى محاضرة تقوم على ثلاث آيات من كتاب الله.. ثم جاء اضطراب الخطى مع الاصطدام بواقع الحياة وتياراتها، ونقص الاستعداد لمقابلة هذه التيارات، وتحديد المطلوب في كل مرحلة من مراحل الدعوة، وتوفير الأفراد القادرين عليها، وما أكثر ما تتعثر حركات التغيير عند فقدان القائمين بها لحقيقة أساسية: هى أن لكل مرحلة مواصفات رجال

تختلف عن المراحل التالية. الخطباء وأصحاب حلم المستقبل فى مرحلة التبشير، القيادة العملية القادرة على تحويل الحلم إلى حقيقة، التقنيون المسئولون عن التنفيذ بكل ما يحمل من الصواب والخطأ والمراجعة، ثم الصراع بين الذين مهدوا وهم لا يقدرون عمليا على التنفيذ، والمنفذين الذين لم يشاركوا فى التمهيد، ثم بروز شخصية أو أكثر تفرض وجودها على الآخرين، وتسيطر على كل من الممهدين والمنفذين.. وتظل التغيرات مستمرة بين نجاح وفشل(٥).

٣ ــ ويرتبط بهذا جيل أو أجيال من وارثى حركة التغيير (وبخاصة عند تنحيتها عن الطريق) يعيشون على المجد القديم، وما لقيه الجيل الذى سبقهم من عنت ومظالم، عند الصراع بينه وبين السلطة القائمة.. ويتحول جانب كبير من الجهد إلى قضية لها طرفان من إتهام وادعاء دون توسط. وأنت تستطيع أن تطبق هذا، حتى على الصراع بين المذاهب الاسلامية الكبرى، وكيف تحول أحيانا إلى حروب عنيفة ضارية، بين إخوة تجمعهم قبلة الصلاة، وتفرقهم عصبية المذهب، وينعكس هذا على ادبياتهم وما يقدمونه إلى الشباب من غذاء عقلى(٦)

٤ ــ فريق أو أكثر حصر نفسه فى زاوية من زوايا المظهر، أو العبادة، أو العمل الإسلامي، أو التعامل، وكأنها الإسلام كله، أو الباب الأمثل للدخول إلى الإسلام وتحقيقه. وظل

يـدور فى دائرتـه الضيقة وهـو يحسب أنه يُحسن صُنعـاً، ومن هـذه الـزاويـة الضيقـة نـظر إلى الحيـاة، واصــطدمت بعض فصائله بالمجتمع الكبير.

ولنصارح أنفسنا بأن معارف أكثر شبابنا وتطلعاتهم محدودة، وأننا فى عرضنا لحضارتنا وديننا نشغلهم كثيرا بالماضى عن المسئولية والمشـاركة في بنـاء الحاضر والمستقبـل، ونشغلهم بالعمـوميات عن المناهج، وبنقد الغير عن تنميـة الذات.. هـذا فى عالم تـزداد فيه الفجوة اتساعا بين الشمال والجنوب، ما لم يتدارك الجنـوب نفسه، بأسلوب من التعاون العالمى الجاد.

إن التقدم فى الحياة المعاصرة ليس منحة من أحد، وإنما هو رداء خيوطه الجهد والمعاناة والتنظيم والتعاون والإبداع.

ولننتقل إلى نماذج معاصرة من الشرق والغرب:

(٩) اليابان: نموذج من الشرق للنمو المتوازن (عرض ومقارنة)

ويخطىء من يظن أن دولة كاليابان تبذل جهدها فى الجوانب العلمية والتقنية، على حساب الـدراسات الاجتـماعية والأدبيـة، أو أنها أهملت الدين لحساب العلم، فالحضارة كيان يتحرك بقـوته فى كل اتجاهاته، ويتوازى عندهم ويتكامل: الصالح من التراث، مع

حركة ترجمة نشطة واسعة من اللغات الحية، وعناية فائقة بالتربية والتعليم، وتعاون وثيق بين المدرسة والبيت، وإبداع فى الحضارة المعاصرة وصل بهم إلى القمة في بعض الفروع، وهى قمم يزيدونها ارتفاعا بالابداعات الجديدة، مع دراسة وتتبع للأسواق العالمية واحتياجاتها، وعلاقتها بمناطق إنتاج المواد الأولية، وكيف يستطيعون دخول هذه الأسواق ثم السيطرة عليها، أو على الأقل تثبيت الأقدام فيها.

وفي نظرتهم إلى المدرسة وإلى المصنع احترام يصل إلى القداسة: وذلك بممارسة عملية وتدريب يشارك فيه المدرس مع تلاميذه، كما يشارك مدراء المصنع مع العاملين فيه.. حتى الأفراح والأحزان، وتحمل ضغوط المنافسة الداخلية والخارجية، حتى التضحية أحيانا بجزء من الأجر من أجل إنقاذ المصنع، ثم المشاركة فى الأرباح بعد ذلك، ويطبقون هذا على المدير كما يطبقونه على الحارس عن تراضٍ وتشاور(٧)..

كل هذه مسئوليات تشغل المجتمع، وتشغل الأطفال والشباب فى البيت والمصنع، فلا يجد وقتا لفراغ قاتل أو قلق سلبي، وبهذا يبدو تأثير التقدم العلمى - بمعناه الحديث - مع توجيه طاقة الشباب إلى ما هو أفضل.

ولقد درس بعض الكتاب الغربيين العلاقة بين الاهتمامات العلمية، والاهتمامات الدينية(٨). وأن الثانية تقوى فى ضعف

الأولى، وإذا صدق هذا فى بعض الأقطار الشرقية والغربية، فلا يمكن اعتباره قاعدة مطردة فى عالمنا المعاصر.

ومن هذه الزاوية ـ أى تعانق الفكر العلمى والدينى وتقدمهما معا ـ أود أن أذكر نماذج من خارج العالم الإسلامى، ومن اليابان تحديدا:

ففى المذاهب البوذية نرى تنوعا كبيراً: منها ما يدعو إلى الزهد والبعد عن مسئوليات الحياة، ومحاولة السمو الداخلى بالنفس عن طريق تحررها من مطالب الجسد وحاجاته. ولم يكن هذا الاسلوب يناسب اليابان فى تقدمها، واتخذت فى «مذهب الزِنّ» (وهو أحد مذاهب البوذية) خطا إيجابيا فى الحياة، نابعا من قاعدة أساسية فيه هى «الاستنارة» أو «ساتورى» فى اصطلاحهم. ويقصد بها حالة إشراق فى النفس، والاهتداء إلى مخرج من ضيق أو مشكلة يعانونها.

فماذا لو اعتبروا التحدى الحضارى مشكلة كبرى، وعليهم البحث عن المخرج. عن الاستنارة. عن الساتورى. عن الطريق الجديد؟ فإذا استطاعوا الاهتداء إلى الطريق كانوا بهذا يحققون هدفين: هدفاً حضاريا هو التقدم، وهدفا دينيا هو الاستنارة.. هكذا فعلوا[٩].

أخذوا القاعدة من أحد أديانهم، وانطلقوا بها إلى مستقبلهم. وعندنا فى الإسلام قول الله تعالى ﴿ **إن الله لا يغيّر**

ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد: ١١) وهى دعوة دائمة إلى الأفضل، ولكن أين التطبيق؟ والتطبيق حياة القاعدة.

وجاءوا إلى الأديان الأخرى اليابانية كالشنتوية، والمذاهب الجديدة التى أبدعها بعضهم بعد الحرب العالمية الثانية. ودرسوا نظائر التعامل الديني فى الغرْب، وكيف تتعاون المذاهب.. ثم تكون فى اليابان نوع من «الاتحاد» لا يرى فيه مذهب أنه يحتكر الحقيقة كلها وحده، وإنما تتعاون جميعا على تمكين الأخلاق الإيجابية فى الحياة، مع فروق بينها فى الشعائر، وإجماع على الانتماء للوطن، والعمل من أجل صالح الجميع، وكفالة حرية العبادة لكل فرد، وكأنهم فى تطبيق حى لقول الله تعالى: **﴿ لا إكراه فى الدين ﴾** (البقرة: ٢٥٦). ولكل منهم أن يتبيّن الرشد الذى يطمئن إليه.

هذا النوع من التطبيق غريب علينا الآن، وإن كانت بذوره وجذوره بين أيدينا:

ألم يأذن النبى عليه الصلاة والسلام لوفد نصارى نجران أن يؤدوا صلاتهم فى مسجد المدينة؟ صحيح أن العلماء بعدها اختلفوا: هل هو حكم عام أو موقوت؟ ولكن الذى يعنينا هو روح السماحة التى تجلت من المصطفى عليه الصلاة والسلام مع ضيوفه من نصارى نجران(١٠).

ألم يتفق نصارى بيت المقدس على أن يحفظوا مفتاح كنيسة القيامة عند أسرة مسلمة ظلت تتوارث هذا الشرف، حسما للتنافس والتنازع بين الطوائف المسيحية؟ كذلك كان رجال الأمن المسلمون يحملون مسئولية فك الاشتباك بين الطوائف عند تنازعها على أنصبتها في أرض الكنيسة أو عدوان إحداها على مكان الأخرى، أو جزء من ذلك المكان(١١).

ومع آفاق السماحة التى كنا نعيش فيها، شهدت بعض عصورنا الماضية ـ كما يشهد حاضرنا ـ صنوفا من الفرقة والتعصب الضيق:

شهد المسجد الحرام أربعة أئمة للمذاهب الأربعة يؤدون الفريضة الواحدة، «وكل إمام يصلى بطائفة، ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط» وقد زالت هذه الفرقة والحمدلله إلى غير رجعة(١٢).

وإذا كان التعصب المذهبى فى المسجد الواحد قد أخلى طريقه للصلاة الجامعة المفروضة، فلقد ظهرت صنوف من التعصب الجديد تمثله فصائل محدودة من الشباب. وظهر تعصب مذهبى. ووصل عدوان هذا وذاك حتى إلى المسجد الحرام والمسجد النبوى، واستطاع الصراع المذهبى أن يشعل حرباً بين العراق وايران، ومهما قيل عن أسبابها فلن تستطيع أن تنحى العصبية المذهبية عن مجال البحث، أضف إلى هذا التوترات بين

دين ودين، وانظر ما صنعت بلبنان، والتوترات العرقية وما صنعت فى باكستان. والأمثلة كثيرة.

ولنا أن نقارن بين ما قامت به اليابان، وما قمنا به، والآثار الطيبة التى جنوها من السماحة، والآثار المدمرة التى جنيناها من العصبية الضيقة والمذهبية الجامحة.

إن لكل من هؤلاء عدد محدود من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، أو النصوص، يفسر على أساسها الإسلام، أو مايؤمن به من دين، ويتمسك بها تمسكا يحجب ما وراءها من حقائق الحياة الكبرى.

فرق كبير بين صحة الشيء فى ذاته، ومكانه فى سلم الأولويات، وحجم المسئوليات فى المجتمع؛ وبين الحرص على نقطة محدودة يكون من وراء تنفيذها خطر كبير وفرقة بين المسلمين، أو بين عناصر الأمة من مسلمين ونصارى. وهكذا من أجل حق صغير، كنا ولا زلنا نهدر حقوقا كبيرة. وتلك الحقوق الصغيرة أصبحت شارات لجماعات تحاول أن ترى من ثقوبها الضيقة مساحة الحياة ومشكلاتها.

ومن هنا تبدو الحكمة العميقة فى قوله الله تعالى: ﴿ **قل سيروا فى الأرض** ﴾ (النمل: ٦٩)، هذا السير الذى يفتح الأذهان على تجارب الآخرين، ويوفر فرصا أوسع لانتقاء الصالح

من هـذه التجـارب، ويـدعـونـا إلى اقـتراح أسلوب أو أسـاليب جـديدة، نـابعة من الإسـلام مستجيبـة لحـاجـات العصر، سيأتى بعضها فى ختام هذا العرض، وهى محاولة للإفادة من طاقة الدين فى الدفع الإيجابي لحركة الحياة التي لا نملك إلا أن نقبل تحديها، ونشـارك فى ركب الأحياء، أو نغفـل عنه ـ لأى سبب ـ فيتخـطانا الركب، وهو لا يأبه بالخوالف ولا القاعدين.

(١٠) ونموذج من الغرب : الولايات المتحدة.

ويـظن البعض أن الغـرب قـد أعـطى ظهـره للدين، وأنـه مجتمعات منحلة ماديـة تسير إلى الانهيـار. ومن الخطر عـلى أنفسنا وعلى شبابنـا أن نلجأ إلى التعميم، ونحـاول أن نختصر في سطور جهوداً حضارية من قرون، وموجةً تاريخية جاءت مع كشف العالم الجـديد والـدوران حول افـريقيـا في أواخـر القـرن الخـامس عشر ومـطالـع السـادس عشر، عنـدمـا أدرك العـالم لأول مـرة حـدوده وأبعـاده. وانتقل الثقـل الحضاري من حـوض البحر المتوسط إلى شـواطىء المحيط الأطلسي، وظـل كـذلـك حتى جـاء التـطور الحضاري الجديد في القرن العشرين، وفيـه تعددت مـراكز الثقـل الحضـاريـة، وظهـرت أهميـة المحيط الهـادي، كـما ظهـرت أهميـة الفضـاء، ثم الفضاء الخـارجي والقارات القـطبية معـاً، الشـماليـة كـطريق أو سـماء أسـاسيـة في الاتصـال بـين الشرق والغـرب، والجنوبية بما تحوي من ثروات.

آلاف من العلماء يعملون، يزدادون كل يوم عدداً، ويسجلون جديداً في تسابق علمي لاحدود له.

ومن الخطر أن نستهين بهذه الجهود الممتدة من اليابان شرقا إلى الولايات المتحدة غرباً في عالم لم يعد ينقسم إلى مجرد شرق وغرب، ولكن أيضا إلى شمال وجنوب، في يد أحدهما مفاتيح التقدم العلمي ولاتزال، مع أن جانبا غير قليل منها قد فصل بين العلم والأخلاق، أو على الأصح بين العلم والحكمة، وبخاصة في التسابق العنيف في مجال عسكرة الفضاء، وهو المجالد الذي أخذ العملاقان الكبيران في تحديد آفاقه بعد أن بلغ المخزون من السلاح الذري ما يكفي بعضه لفناء العالم[١٣]..

ومن الخطر أن نسمع قول الذين يهونون من أمر هذه الإنجازات، ويحاولون أن يخدرّوا مشاعر الإحباط المؤلم في نفوسنا. وبعض هذا القول يصدر من أهل الغرب نفسه. وكلماتهم - أحيانا - كالإبر الصينية تمس فينا أعصابا حساسة ومؤثرة.

إن الغرب محيط متدافع من التيارات: فيه العلم والدين، والحقيقة والخرافة، والصادقون والمشعوذون.. ولكل من هؤلاء من يتبعه أو يتتبعه. ومن قريب كنت في الولايات المتحدة (سبتمبر/أيلول ١٩٨٨) وأتيحت لي فرصة متابعة عدد من البرامج التلفزيونية الدينية (وهي تعبّر عن رأي أصحابها الذين يستأجرون الوقت من الشبكة). ولهم نجومهم الذين لا يقلون عندهم أهمية

عن نجوم الفن والعلم. ولهم أساليبهم التي تتنوع من الموعظة بالكلمة، إلى موائد الحوار، إلى الردود على أسئلة المشاهدين، إلى الغناء والرقص، إلى حلقات الذكر مع مصاحبة الموسيقى والحركات والإشارات، إلى معالجة الأمراض بالدعاء والصلوات واللمس، أو وضع اليد على الخطاب الوارد من المريض..!! سوق مركزية متخصصة في الدين. والبائعون: منهم الهادىء نسبيا، والشديد المتمسك بالنصوص، والمؤمن بنبوءات العهد القديم أو الجديد، والذي يؤيد إسرائيل جهارا على هذا الأساس، كأنما يطبق نصوصاً مقدسة. ونجد من ينقد هؤلاء ويبيّن زيف ادعاءاتهم وخطورتها على الحياة الأمريكية والفكر الإنساني(١٤). هذا إلى الذين تركوا الدين وراءهم ظهريا، واكتفوا بقيم أخلاقية ارتضوها وعاشوا بها، واكتفوا بدراسة الدين كظاهرة تاريخية واجتماعية وأخلاقية.. وأحيانا اقتصادية(١٥).

وفي الغرب بعامة ـ والولايات المتحدة وكندا بخاصة ـ جاليات إسلامية، هاجرت ومعها مواريثها من صراع الشرق ومذهبياته، التي يحاول بعضها أن يحتكر الحقيقة، وأنه وحده الفرقة الناجية. وأضافوا إلى أساليبهم التي جاءوا بها بعض أساليب الغرب في العمل الديني. وآسف حين أقول: إن بعض دولنا في العالم الإسلامي كانت وراء تأييد فريق ضد فريق، حتى وصل الأمر إلى التصارع، ومحاولات التسلل إلى مراكز إسلامية قائمة، أو هي في دور التكوين، واحتلالها والسيطرة على إدارتها،

كأنها قلاع الإقطاع في العصور الوسطى، أو مضارب قبائل، أو عيون مياه في الصحاري العربية.

ومرة أخرى : من المسئول؟ الشباب المندفع؟ أم الدول التي وراءه؟ أم العلماء الذين لقّنوه التعصب والكراهية، واعتبروها جزءاً من الدين، إن لم تكن أساس العمل الديني كما صوّروه؟ من المسئول عن غرس الأحقاد القديمة في الأجيال الجديدة، والمهاجر الجديدة؟

أليس مما يستوقف النظر أن الأمريكيين المنحدرين من أصل افريقي استطاعوا أن يصبحوا جزءاً حيا في العالم الجديد (رغم بعض العقبات التي لاتزال قائمة)، وأن يفلح الأسيويون في ذلك رغم فارق اللون والمذهب الديني، ويبقى العرب والمسلمون في وضع يحتاج إلى كثير من الجهد ليتوازى مع غيرهم في العالم الجديد؟ ولك أن ترى انعكاس هذا كله في كتاباتهم، وفي أفلامهم السينمائية والتلفزيونية.

هذا بينما يصل الطموح عند بعض العاملين في الحقل الديني المسيحي هناك إلى المناداة «بتنصير العالم الإسلامي»[١٦] ولهم في هذا مخططاتهم الشاملة ومؤتمراتهم ومطبوعاتهم المنشورة. هذا إلى تنسيق التعاون بين مذاهبهم وكنائسهم، بحيث تنظمها لقاءات عالمية، تحاول أن تمتص ما بينها من مشكلات، لتتجه

الطاقة إلى توسيع الدائرة العالمية المسيحية في المناطق ذات الديانات البدائية ومناطق الأديان الأخرى معاً.

والولايات المتحدة - كمثال - ميدان مفتوح لكل الدعوات الدينية: هناك تنشط المسيحية بمذاهبها القديمة والحديثة، كما ينشط البوذيون والمسلمون، ومذاهب من أديان الهند، فضلا عما يسمى بالأديان الجديدة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية. وللمستمع أو القارىء أو السامع أن يختار، وأن ينتقل من محفل إلى محفل. وعندهم الحوار الديني الذي يضم أكثر من دين. وتمر حياتهم الدينية - كحياتهم السياسية - في مستويات عقلانية، وصراع ظاهر وخفي، بالكلمة الهادئة، وبالإيذاء الذي يصل إلى الاغتيال.. هكذا يعيشون.

ولكن مع هذه التيارات، هناك العمل الدائب والإبداع ومحاولات الصعود في المجتمع في تعاون عرقي أو ديني أو لوني، تمتزج فيه مصالح الفرد بمصالح جماعته، وللنشاط اليهودي في هذا المجال دور كبير[١٧].

والعالم الإسلامي ليس جزيرة منعزلة في محيط العالم الحديث. وشبابه منتشرون الآن في كل قارات الأرض. وعلينا أن نأخذ في حسابنا هذا الاتصال العالمي وانعكاساته وأساليبه، وأن نستظهر أن قلق الشباب ظاهرة عالمية. إنه قلق جيل على

مستقبله. وصناعة المستقبل حوار دائم بين قوى الحاضر (محلية وعالمية) ومؤثرات الماضي وطموحات الغد وإمكانات المجتمع.

(١١) تعاون بين الشرق والغرب

وأود أن أذكر مثالين من التعاون العلمي من أجل الشباب والأجيال الجديدة، بل من أجل صناعة المستقبل، بين الشرق والغرب.

فبعد أن أحست الولايات المتحدة بحاجتها الماسة إلى تطوير تعليمها رغم ما أحرزته من التقدم، وبعد أن قارنت بين مستويات خريجيها وبخاصة في الآفاق العلمية والتقنية، وانعكاس ذلك على حجم ومستوى الإبداع في غرب أوروبا والاتحاد السوفيتي واليابان بصفة خاصة، وتكونت اللجنة الأمريكية التي أصدرت تقريرها المعروف «أمة في خطر» (١٩٨٣).. أخذت خطوة أخرى مع اليابان، باتفاق بين الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء الياباني، وتكونت لجنتان: الأولى أمريكية تدرس التعليم في اليابان على الطبيعة وباتصال مباشر، والثانية يابانية تدرس التعليم الأمريكي في مواقعه. وقد صدر التقريران، كما صدرت ترجمتهما العربية (١٩٨٧، ١٩٨٨)[١٨]. وإن تبادل التقريرين يؤدي إلى إفادة النظامين معاً. ذلك لأن «صورة الآخر» أصبحت الآن مما تعني به الدراسات المعاصرة، ودخلت دراسات التاريخ

أيضا. وإن إلقاء الأضواء الخارجية يضيف عمقاً جديداً للنظرة، ويساعد على الوصول إلى الحلول الأكثر إيجابية وتجاوبا مع روح العصر، دون انطواء أو اكتفاء، قد يكون في جوهرة إحجاماً عن الدراسة المعِنَة، وإشفاقا من مواجهة الذات والمجتمع.

ولا نستطيع أن نقول إن هذا التطوير ـ أو مشروعه ـ من مسئولية الشباب، ولا تستطيع أن تقوم به إلا أجهزة الدولة نفسها. وهذه التقارير التي يضعها الآخرون ـ عن اتفاق وتشاور ـ تعاد دراستها وفحصها لتحديد أساليب الإفادة منها. بل إن «منهج» كتابتها له فائدته في بيان أساليب التفكير عند الآخرين واهتماماتهم، دون شعور بالنقص أو الاستعلاء.

وهكذا نرى المسئولية مشتركة، وأن علينا أن نضع ـ متعاونين ـ خطوط التغيير إلى الأفضل لنرتفع فوق مستوى التبرئة والإدانة إلى مستوى الإصلاح.

وأود أن أضيف إلى صور التعاون السابقة، ما تنشره الهيئات الدولية (كاليونسكو) من تقارير، وما تعقده من ندوات ومؤتمرات عن واقع ومستقبل التعليم على مستوى الأقطار والأقاليم.

وعمليات التطوير تقتضي أولا وجود الأساس الذي تتراكم أو تتجمع فيه المعارف والتجارب تمهيدا للانطلاق. وهي مراحل

متتابعة تستهدف كسر إطار التخلف بكل سلبياته الضاغطة على الفرد والمجتمع. والتخلف هو صانع التوتر الذي ينعكس على تحركات الشباب.

(١٢) مدخل إلى الاقتراحات

كان الإمام مالك بن أنس (رضي الله عنه) لإخلاصه، لا يقول : هذا حرام أو هذا حلال، إلا إذا كان ثمة نص صريح. أما ما يكون استنباطا بوجه من وجوه الرأي فإنه يقول : «أكره وأستحسن» وكثيرا ما كان يعقب على ذلك بقوله مقتبسا من القرآن الكريم ﴿ **إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين** ﴾ (الجاثية : ٣٢)[١٩].

وعلى هدى من أخلاق علمائنا في أدب الحوار نحاول أن نعرض هذه المقترحات، وهي ليست رأيا منفرداً، وإنما تدور في قول الإمام مالك : «أستحسن».

ولازلت أذكر موقفا طلب فيه مسئول كبير وضع سياسة شاملة للشباب في أسبوعين. طلبها من مختص يؤمن بالعمل الجماعي، ويؤمن بأن ما عجزت عنه السنون لا تحسمه الأيام، وما هو من مسئولية فريق لايقضي فيه مختص واحد مهما تكن كفاءته، وأن الشباب قضية متشابكة دائمة التغير، وخطتها جماعية تتطلب روح الفريق وعمل الفريق.

وفي لقاء هادىء عرض المختص تقسيم العمل، وأن يحمل هو مسئولية قطاع محدود فيه، له أهمية عاجلة. وكان قبول، وكان عمل وتنفيذ، ومن الله التوفيق[٢٠]

(١٣) الاقتراحات

وهذه رؤوس أقلام في الاقتراحات نختمها بذكر بعض مشكلات تطبيقها :

أولاً : إعادة النظر في مناهجنا التعليمية. وليس هذا بالأمر السهل ولا القليل النفقة، ولا اليسير القبول على أطرافه جميعاً. ولكن ليس لنا سبيل غيره. وفي الشواهد التي سبق ذكرها بعض الأدلة على ذلك. إن الإنفاق، أو على الأصح، الاستثمار التربوي، لايقل خطورة عن أهمية جيش يحمي البلاد. فالتربية مدد لكل جيش، ولكل مصنع، ومركز أبحاث، وهي وثيقة الأمان الأساسية للمستقبل.

ثانياً : توثيق الروابط بين الأجهزة العاملة في حقل التربية : بدءاً من البيت وسيرا إلى المدرسة وأجهزة الإعلام والمؤسسات الثقافية، وبين الجهات التي تتلقى الخريجين من مستوياتهم المتعددة، بحيث يعمل الجميع - بقدر الاستطاعة - في تناسق ومن أجل أهداف واضحة.

ثالثاً : تقوية روح الانتماء العملي لا النظري وحده ولا المظهري : الانتماء إلى الوطن وإلى العقيدة وإلى اللغة. . والانتماء دوائر تتسع من محيط الأسرة، وهي مدرسة الانتماء الأولى، إلى الوطن دون أن تقف عند حدود العرق أو المذهب أو المدينة أو القرية، ودون أن يتجاهل الانتماء أيّا من هذه المستويات. . ثم يصعد بعد هذا إلى الانتماء اللغوي والعقائدي والإنساني المتوازن. وسأعود عند عرض المشكلات إلى موضوع الانتماء مرة أخرى.

رابعاً : توسيع آفاق الشباب الثقافية والعلمية المتعاونة مع المدرسة. كمثال: نحن حتى الآن لاندرس «التاريخ العالمي»، وأكثر تركيزنا على التاريخ المحلي والإقليمي. وبهذا لا تتكون عند أبنائنا النظرة العالمية التي تضع الوطن والعقيدة في منظورها الشامل دون استعلاء ولا انطواء، والتي تعينه على اصدار الأحكام ووزن الأمور على أسس أكثر سلامة وحكمة، ولا أقصد التاريخ السياسي وحده، وإنما التاريخ الحضاري وبخاصة تاريخ العلوم سيراً الى الابداعات العلمية المعاصرة.

خامسا: تأسيسا على ذلك: نحن لا نمر فقط بعصر صحوة إسلامية، وإنما الصحوة تشمل أدياناً أخرى. ساعد على هذا سهولة الإتصال، وزيادة الوعى بالخصوصية الحضارية، والدين جزء منها وعون عليها، وتعدد المراكز الحضارية، ومن بينها المركز الإسلامي. ولقد استطاع غيرنا أن يستثمر هذه الصحوة إيجابيا،

وأن يحوّل الفكر الأصولى فيها إلى قنوات عمل منتجة، أو يستثمرها لهدف محدد (التعاون الديني في اليابان. تعاون قطاع من الفكر المسيحي الأصولي في العالم الجديد مع الصهيونية العالمية) بينما اتجهت الصحوة الإسلامية فى أكثر من قطر إلى صراعات داخلية، بين الأجهزة الحاكمة والأمنية والشباب، وتحولت بعض مساراتها إلى فرعيات ومظهريات، وعلينا أن ندير حواراً خصبا وعاجلا تتحول به الصحوة إلى إيجابيات الحياة وقضاياها التى لاخلاف عليها (وسأذكر منها نماذج كمدخل إلى التعاون). إن تجارب الآخرين فى استثمار الصحوات الدينية ينبغى أن تكون تحت أيدينا، وهى متيسرة. وعلينا أن نبذل الجهد لإقامة الجسور بين الشباب وأجهزة الأمن وصانعى القرار، على أساس من التعاون لا التصادم، وكذلك إقامة الجسور بين الأجهزة العاملة المتصلة بشئون الشباب لينتظمها «ميثاق» من العمل يضمَّ الإيجابيات على المستوى الديني والوطني معاً.

سادسا: العناية بتبادل الخبرات والتجارب بين دول العالم الإسلامي وتوثيق الروابط بين العاملين فى حقول الشباب، وفيما بين الشباب[٢١].

ولا أريد أن أضيف كثيرا مما يطلق عليه اسم (الينبغيات) أى قول: ينبغى!!.. وما أرخصها على الورق، وما أغلاها فى التنفيذ. ولكن أود أن أضيف كلمة عن المصارحة والربط بين الأمال والواقع والممكن فيما يمكن أن نسميه:

(١٤) مشكلات التطبيق:

وبها ختام البحث، ومن بعده المكتبة التى آثرت وضعها على حدة لمن أراد تفصيل القول.

أولاً: في حياتنا ـ وحياة كثير من المسلمين ـ مستويان ـ على الأقل ـ للإسلام:

١ ـ مستوى النصوص من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ مستوى التطبيق أو على الأصح مستويات التطبيق. هذا المستوى من الإسلام الذى يعيشه الناس بقدر ما يستطيعون تطبيقه، دون إنكار أو تنكر للنصوص فى المستوى الأعلى. «والإستطاعة» فى الإسلام أساس.

ويأتى جانب من الصدام أو المواجهة بين الحكومة والشباب، أو بين الأجيال المتتابعة، أو فصائل الجيل الواحد، من تمسك البعض، بكل ما جاءت به النصوص، تاركا أمر الإستطاعة. وفرق بين الذى يتكلم أو يكتب، وبين الذى يحمل المسئولية التنفيذية، وهو مسئول عن التصرفات العملية ونتائجها. ومن هذا الفرق يأتى شر كثير، إذا لم يكن محل تقدير من الطرفين.

ثانيا: إن كل دولة إسلامية تسمح عمليا بمساحة من التطبيق الإسلامى، لا نستطيع أن نقول إنها كل الإسلام، ولكنها فى ذات الوقت إسلام، هو إسلام الإستطاعة، دون تنكّر لما هو أعلى.

فلنتفق أولا على مكانة المصدرين الأساسيين: الكتاب والسنة. ولنكن صرحاء فى تحديد المساحة المسموح بالتحرك فيها، وأن نبذل الجهد متعاونين على توسيعها، باجتهاد يقوم به المختصون الفاهمون لروح العصر، ولأصول الإسلام، والحريصون على الوحدة الوطنية فى كل قطر، وعلى سماحة الإسلام، وسينشأ من هذا نوع من التعددية فى الفهم، وفى التطبيق، وليس أمامنا إلا قبول هذه الإجتهادات في إطار الوحدة الإسلامية الكبرى.

ثالثا: لا نستطيع أن ننكر وجود أخدود من عدم الثقة بين بعض القواعد الشعبية الإسلامية، وبين الإجهزة الحاكمة والأمنية.. وحتى فى القطاع الديني أصبحت بعض فصائله تفرّق بين ما يسمونه الإسلام الحكومي والإسلام الشعبي: الأول أقلّ مساحة وأقوى يداً، والثاني أوسع أملا وأضعف يداً. وهذه ظاهرة طارئة على الإسلام، ونحن جميعا مطالبون بردم هذا الأخدود، وإبداع أسلوب من التعاون يصان به الحكم والأمن والفكر والأمل معاً، ولا أتكلم من موقع خيال بعد أن ذكرنا فى البحث النماذج العملية من شرق وغرب.

(١٥) نماذج من تحويل الطاقة إلى الإيجابية

ولعل من أروع نماذج تحويل الطاقة إلى الإيجابية انطلاق الإنتفاضة الفلسطينية من قلب الأرض المحتلة، بهذا القدر من الإيمان والتصميم والتضحية، التي استطاعت أن تجتذب أنظار الإعلام العالمى رغم قوة الصهيونية فى هذا المجال، ونقلت القضية إلى صدر صفحات الجرائد، وأوائل نشرات الأخبار، وأرادت حولها حوارا، نرجو أن يؤتى ثماره، واستطاعت أن تمتص خلافات كثيرة كانت فى الساحة، فخفضت صوتها أمام طهارة العمل الثورى الإيجابي، الذي نأمل أن يظل مرتفعا فوق قوى التمزيق والتشرذم.

وفى الوقت الذى ننظر فيه بكل الإعزاز والتأييد لهذا الموقف النبيل، كنا نتمنى من أعماق قلوبنا أن تقف الحرب العراقية الإيرانية التى استمرت أعواماً ثمانية بين أهل القبلة ودمرت في ميادينها ما دمرت وعصفت بزهرة الشباب في الجانبين، وكم نتمنى الآن بعد إعلان وقف إطلاق النار وبدء المفاوضات أن يحل التعاون محل الصراع القديم، تعاون تتسع أماده.. ونموذج غرب أوروبا ليس منا ببعيد.

كذلك نحن ننظر بكل الألم إلى ما يجرى على الساحة اللبنانية من صراع بين إخوة يجمعهم الوطن وتفرقهم العصبيات العرقية والمذهبية والدنية.

ومن هـذة الأمثلة تبدو أين ينبغى أن تتجـه الطاقـة، طاقـة الشباب، بل طـاقة الأمـة كلها. أن تتجـه إلى بناء داخـلى، وإلى استخـلاص حق، وتنأى عن صراع داخـلى، أو حرب بـين إخوة تجمعهم قبلة الصـلاة أو وحـدة الـوطن، وقـدرهم أن أن يعيشـوا متحابين متعاونين.

ولأذكر ثلاثـة أمثلة من مصر، حيث يعقد مؤتمـرنا هـذا، لتكون ختام هذا الحديث:

مـا عنـاصر الحيـاة المصريـة؟ أتصـورهـا أربعـة: المـوقـع. الأرض. المـاء. الإنسـان. قـال هـيرودوت: «مصر هبـة النيـل»، وقال بعض علمائنا «والمصريين أيضا» فالحضارة المصرية تفاعل بين هـذه العناصر الأربعـة.. فماذا فعـل العنصر الحى وهـو الإنسـان بالعناصر الثلاثة الأخرى؟ وبماذا أعددنا هذا العنصر البشرى ليقوم بمسئولياته؟

ندع الموقع فهو ثابت تحدده العلاقات المكانية في قلب العالم القديم، وملتقى القارات الثلاث، وركن البحر المتوسط الذى ظل قلب العـالم حتى كشف العـالم الجـديـد، ثم عـادت أهميتـه إلى البروز.

وننظر بعد هذا إلى ما صنع الإنسان بالأرض والماء..

عنـدنا قـدرٌ محدود من الـطين بعد بنـاء السد العـالى، دون شق المفيض أو القناة الغربية، ولعلنا نعيـد التفكير فيهـا الآن بعد

مـرور هذه السنـوات، فالفكـر الإنساني والإنشـائى لا يقف عنـد مرحلة معينة، وعليه أن يقابل متغيرات الحيـاة، وأن تكون عنـدنا الجسارة الفكرية لنرى مرحلة «ما بعد السد العـالى»، ولكنى الآن اتحدث في حدود المرحلة القائمة وأطرح سؤالإ له مقدمة:

ـ إننا نحكم بالإعدام على من قتـل نفسا بـريئة متعمـدا. وحياة الإنسان تقاس بعشرات السنين، فما جزاء من يغتال قطعة من أرض وطنه ظلت تؤتى ثمارها آلاف السنين، هذه الجريمـة التى نطلق عليها اسم «التجريف»، وتخريب الأرض الزراعية، هذه الأرض الأم التى عشنـا عليهـا وعـاش عليهـا آبـاؤنـا. . مـاذا صنعنا بمن يقتلها. . يقتل أُمّة التى أرضعته ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا** ﴾ (نوح: ١٧) وماء النيل: الماء الذي وضعه الله تعالى بقوله ﴿ **وأنزلنا من السماء ماءً طهورا** ﴾ (الفـرقان: ٤٨) مـاذا فعلنا بمن يلوث هـذا الماء، ويلقى فيـه فضلات المصـانع وسمـومها؟ وإذا استمـر اغتيال الأرض وتلويث المـاء، واستمر هذا الفساد دون رادع، ماذا يبقى لنا؟ إن شبـابنا حـاربوا من أجل هذه الأرض التى نغتالها، والصراع بيننا وبين اسرائيل هو على «الأرض». واذكروا فـرحتنا بعـودة «طابـا» ومن قبلها بعـودة «سيناء».

ماذا نقول فى هاتين الجـريمتين: قـانونـا ودينا؟ بـل وأخلاقـا ووفاءً وانتماءً؟ ماذا قال القضاء؟ وماذا قالت المنابر؟

ثم الإنسان: الشباب، وهذا الغزو الرهيب من المخدرات والمكيفات.. حتى إعلانات التدخين التى حاربها العالم المتقدم، بعد أن كشف علاقته بالسرطان وأمراض القلب والرئة ـ لازلنا نكتفى بهذا السطر الهزيل على علب السجائر نحذّر منها الشباب، بينما تثبت الإحصاءات العالمية، أن نسبة المدخنين فى العالم الثالث آخذة فى الزيادة، وهى تتناقص فى الشعوب المتقدمة بالاقناع والمشاركة الإيجابية من أجهزة الإعلام، وهل أعلامنا عون للشباب أم هو حرب عليهم؟

هذه قضايا ثلاث: الأرض والماء والشباب. وأعداؤها الكبار ثلاثة: التجريف والتلويث والمخدرات. ألا تصلح هذه المعادلة أن تكون أساسا لتحرك الهيئات الدينية من إسلامية ومسيحية لنتعاون على إنقاذ أرض مصر ومائها وشبابها؟ ألا يكون هذا خدمة للوطن وللشباب وللدين معاً؟

هذه قضايا نستطيع أن نجمع عليها، مضافة إلى إيجابيات التربية والتعليم. وندع إلى حين القضايا الخلافية، ونركز على أهداف محدودة، لنتذوق طعم التعاون والنجاح، ونزرع الثقة. وعن طريق الدراسة المشتركة نستطيع أن نتقدم خطوات تتسع بها مساحة التعاون ومناهج العمل الإسلامي، ومساحة الوعى الدينى الإيجابي والسماحة، فى إطار وحدة وطنية، وتعاون عربى واسلامي متناسق مع مسير الإنسانية نحو كرامة الإنسان ومستقبل أفضل.

وفى ختام هذا الحديث أذكر قول الإمام أبى حنيفة النعمان (رضى الله عنه): «قولنا هذا رأى، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا، فهو أولى بالصواب منا».

وقول الإمام الشافعى (رضى الله عنه): «وددت أن الناس تعلموا هذا العلم، ولا ينسب إلىّ شىء منه، فأوجر عليه ـ ولا يحمدونى»[٢٣].

وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «من دل على خير فله أجر فاعله».

(رواه مسلم عن إبى مسعود الأنصارى)[٢٤].

وأدعو ربنا سبحانه وتعالى بما علمنا فى كتابه العزيز:

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ﴾.

(الكهف: ١٠).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكتبة البحث

(١) عبدالعزيز كامل: جسر بين الشباب وعلماء الإسلام. أعمال المؤتمر الرابع للطب الإسلامي ص ٦٣ ـ ٨٧ كراتشي. (٥ ـ ٩ ربيع الأول ١٤٠٧هـ ـ ٩ ـ ١٣ نوفمبر ١٩٨٦). منشورات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي. ط. الكويت (وهو البحث الثالث في هذا الكتاب).

(٢) الجامع الكبير للسيوطي. ١ : ٣٣٢ النسخة المصورة. الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة.

(٣) ديوان الشريف الرضى ١ : ٣٠٥ ط. الأعلمي. بيروت. وقصيدة «هب للديار بقية الجلد» صورة من عزة النفس والدعوة إلى الحركة بحثا عن الأفضل، وإن كان الأصعب. وفيها الصمود في موقف الشدة، والدفاع الشريف، مع الحزن النبيل إذا جاء الغدر من حيث لاتحتسب، وهي من النماذج الكريمة التي تُقَدّم إلى الشباب.

(٤) بالاضافة إلى المراجع الواردة في الهامش رقم (٨) من بحث (كراتشي ١٩٨٦)، ينظر :

١ ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج : ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر. البحرين ٣ ـ ٦ جمادي الآخرة ١٤٠٥هـ/٢٢ ـ ٥ فبراير ١٩٨٥ وقد صدرت عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧.

٢ ـ عبدالعزيز كامل : العمل الإسلامي والتيارات المذهبية : المؤتمر الحادي عشر لمجمع البحوث الإسلامية عن شئون الدعوة الإسلامية. القاهرة ١٥/١٩ رجب ١٤٠٨هـ/٤/٨ مارس ١٩٨٨.

٣ ـ منير شفيق : الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات. دار القلم. الكويت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤ ـ أبوالحسن الندوي : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية. دار القلم. الكويت ط. ١٣٩٧هـ/١٩٧٧. وللندوي دراسات عميقة في تحليل ونقد تيارات الفكر الإسلامي الحديث. ولايتنافي التقدير مع حق الكاتب في التعبير عن الرأي الذي يؤمن به.

(٥) في الدراسات المقارنة للثورات وفترات التغير وخصائص كل مرحلة يمكن الرجوع إلى :

Brinton,c. : The Anatomy of Revolution, Prentice - Hall., New York, 1952.

وفيه يدرس الثورات الفرنسية والإنجليزية والروسية والأمريكية وخصائص ومراحل كل منها سعيا وراء استخراج الخطوط المشتركة. وهو نموذج في الدراسات المقارنة يمكن الإستئناس به وبنظائره في الدراسة العلمية لحركات الشباب في القرن العشرين. وعملياً نحن في حاجة إلى مكتبة للإسلام المعاصر ودراساته.

(٦) ولا ينفي هذا وجود كتابات تحاول التقريب والإلتقاء على عمـل مشترك. وقـد ناقش الكاتب هذا بشيء من التفصيل في بحث «العمـل الإسلامي والتيـارات المعاصرة» (هامش ٤ من هذا البحث).

وانظر في عمق الصراع وتطوره :

١ - Balta,P. : Iran Irak, une guerre de 5000 ans. Editions Anthropos, Paris, 1987

(ايران العراق : حرب عمرها خمسة آلاف عام)

٢ - والفصل الخامس ابتـداءً من ص ١٠٤ من الكتاب الآتي عن التعـاون بين الغرب والدولة الصفوية :

Savory, R : Iran under the Savafids, Combridge University Press, 1980

(٧) (اليابان سافرة) Kawasaki,I. : Japan Unmasked, Tuttle, ToKyo, Japan, 1982.

وهذه هي الطبعـة التاسعـة عشرة من هذا الكتـاب. وكانت طبعتـه الأولى عام ١٩٦٩. وكان كاواساكي سفيرا لليابان في أكثر من قطر غـربي وفي تحليله يربط بـين العوامـل الطبيعيـة والبشرية، والعـوامل التـاريخية، والعـلاقـات الـداخليـة والخـارجيـة. انـظر فصـل : التصـديـر أو الهـلاك ص١١٣ حيث يحلل دوافـع النشاط والإبداع الصناعي الياباني.

(٨) (العلم : ذلك المجهول) Moraze´,C. : Science the Unknown, P.255

وهذا القسم هو خاتمة الكتاب الذي أصدره اليونسكو وأشرف عليه مورازيه :

Unesco: Science and the facrors of Inequality, Paris : 1979.

(٩) Suzuki, D.T. : An Introduction to Zen Buddism, Rider, London, 1969.

ويدرس الإستنارة في الفصل السابـع بدءاً من ص٨٨ وانـظر أيضا في تعـاون المذاهب الدينية في اليابان :

Saunders, D. : Buddism in Japan, Charles Tuttrle, Tokyo, 1980.

وذلك في الفصل السابع بدءاً من ص ٢٦٥.

(١٠) ابن القيم : زاد المعـاد في هدى خـير العبـاد ٣ : ٣٨ ومـا بعـدهـا. ط. دار الفكر بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م عن الطبعة المصرية.

(١١) عـارف العارف : المفصـل في تـاريـخ القـدس ص٥١٧ - ٥٢٣. ط. مكتبـة الأندلس، القدس ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(١٢) رحلة ابن بطوطة : تحقيق علي المنتصر الكتاني ط. الرسالة. بيروت. ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م: مكة المكرمة وعادات أهلها ١ : ١٧٩.

(١٣) ولنا أن ننظر إلى الخطوة الواسعة نحو التفاهم العالمي التي خطاها الرئيس جورباتشيف في كتابه «البيروسترويكا» (إعادة البناء) وقد ظهرت طبعته الأولى باللغة الإنجليزية عام ١٩٨٧ عن دار كولنز بلندن وطبعته العربية عن دار الشروق بالقاهرة عام ١٩٨٨. وقد بدأت فعلا خطوات التخفيض المتبادل في الأسلحة النووية، تمهيداً لتحويل جزء من نفقاتها إلى البناء الداخلي. ولقد وضع عنوانا فرعيا للكتاب «تفكير جديد لبلدنا والعالم» وكل حضارة تخطط لنفسها، ولمكانها في العالم.

(١٤) Grace Halsell : Prophecy and Politics : Militant Evangelists on the Road to Nuclear War, Lawrence Hill and Company, Westport, Connecticut, USA, 1986.

وفي هذا الكتاب تعرض الباحثة التعاون بين اليمين المسيحي المتطرف والصهيونية العالمية، من أجل دعم وتسليح إسرائيل، واعتقادهم أن المعركة الفاصلة في تاريخ البشرية التي سيأتي بعدها المسيح (عليه السلام) ستقع في «هرمجدون» (معنى الكلمة جبل مجدو). وهي في مرج ابن عامر. وهي نقطة استراتيجية على خط المواصلات بين شمال فلسطين وجنوبها، وشهدت معارك فاصلة على مدى التاريخ منذ العصور القديمة. جاءت الإشارة إليها في العهدين القديم والجديد. وقد قام الأصوليون المسيحيون بتوزيع خرائط عن هذه المعركة الحاسمة المنتظرة أوردت الكاتبة نموذجا لها في ص ٢٠. وفي الكتاب مخطط عنوانه : معركة هرمجدون ص ٢١، وفصل عنوانه : ريجان : التسليح لهرمجدون حقيقية. وأنظر أيضا:

عبدالعزيز كامل: العلمانية بين الدين والدولة والحياة (مجلة العربي العدد ٣٤٩ - ديسمبر ١٩٨٧) والعلمانية والدين بين الشمال والجنوب (مجلة العربي العدد ٣٥٢ - مارس ١٩٨٨م)

(١٥) كنموذج لهذه النظرة إلى الدين ، مقارنة مع غيرها من النظرات يراجع الفصل السابع من كتاب :

W. and A.Durant : The Lessons of History. Simon and Schuster, New York, 1968.

وعنوان الفصل : الدين والتاريخ ص ٤٣ - ٥١.

(١٦) Don M. McCurry (editor): The Gospel and Islam. MARC, California, 1979.
وكتاب «البشارة والإسلام» أو «البشارة بالمسيح والإسلام» صادر عن «مركز البحوث المتقدمة والإتصالات للإرساليات التبشيرية» ويشير هذا الكتاب في ص ٥ إلى مؤتمر «تنصير العالم الإسلامي» كجزء من مهمة «تنصير العالم»، وأن الموضوع درس علميا في «المدرسة العليا لارساليات العالم»، وعلى هذا الأساس تقرر عقد هذا المؤتمر في خريف ١٩٧١. والذي ينشر هذا الكتاب أعماله. والكتاب من أكثر من ستمائة صحيفة تدرس العالم الإسلامي قطرا قطرا، كما يدرس الوسائل الحديثة التي تساعد على تنصير المسلمين. والكتاب مطبوع ومتداول هو وغيره من الكتب في نفس المجال.

(١٧) انظر كتاب جريس هالسل (هامش ١٤) وبخاصة الفصل الذي عنوانه: «لماذا تبحث إسرائيل عن حلفاء من اليمين المسيحي الجديد؟ وماذا تكسب إسرائيل من الحلفاء»، «مزج السياسة والدين» (ص ١٤٥ - ١٩٤) والكتاب كله جدير بالدراسة من هيئاتنا الدينية.

(١٨) ١ - مكتب التربية العربي لدول الخليج: الإصلاح التربوي في الولايات المتحدة الأمريكية، من إعداد مجموعة الدراسة اليابانية، وهي منبثقة من لجنة «الدراسة التعاونية للتربية في اليابان والولايات المتحدة». وصدر التقرير الأساسي في يناير ١٩٨٧، وصدرت ترجمته العربية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٢ - الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية: التعليم في اليابان، من إعداد مجموعة الدراسة الأمريكية. وقد صدرت الترجمة العربية في مايو ١٩٨٧.

ويضاف إلى التقريرين المقابلين:

٣ - ادوارد بوشامب: التربية في اليابان المعاصرة. وقد قام بنشره أيضا مكتب التربية العربي لدول الخليج (الرياض. السعودية). وقام بترجمته إلى العربية د. محمد عبدالعليم مرسي ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

وقد سبق هذا عام ١٩٨٣ قيام مكتب التربية العربي لدول الخليج بنشر الترجمة العربية لكتاب «أمة في خطر». قام بها وعلق عليها د. يوسف عبدالمعطي.

(١٩) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٤٠٧ ط. دار الفكر العربي. القاهرة.

(٢٠) انظر تفصيلا لهذه التجربة العملية في :
عبدالعزيز كامل : الدعوة والمجتمع ص ٢٥٧ - ٣٣٥ من أعمال المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية. ذو الحجة ١٣٨٩هـ/فبراير ١٩٧٠. القاهرة.
وكان من توفيق الله استمرار جهود وأعمال الدورات التدريبية في وزارة الأوقاف المصرية للسادة الأئمة، مع توثيق الصلة بين المسجد والمجتمع، والإعتهاد الأكبر على أجيال الشباب منهم، وكان لهم دورهم الإيجابي في الإعداد العقائدي لحرب رمضان/اكتوبر ١٩٧٣.

(٢١) كنموذج أشير ألى مشروعين من مشاريع الشباب :
١ - الديوان الأميري (الكويت) : جهاز الدراسات والبحوث الإستشارية لصاحب السمو أمير البلاد : «الشباب في الكويت» وهو بحث قام به الجهاز بتوجيه من صاحب السمو أمير البلاد، وأشرف عليه د. سالم الطحيح وشارك فيه نحو مائة ما بين عضو هيئة تدريس بجامعة الكويت ومساعد باحث. وشملت الدراسة نحو أربعة آلاف شاب وشابة واستمرت عامين. ودرس المشكلات الآتية عند الشباب :
الإسرة. أوقات الفراغ، التوافق مع الذات، الحاجة إلى المال، الطموح، المجتمع، المدرسة، وكانت الدراسة الثامنة عن الشباب في الكويت : الإتجاهات العامة والنوعية، وبدأت الدراسة عام ١٩٨٢ وتم صدور الأبحاث كلها في ١٩٨٦.
٢ - النادي العلمي الكويت : وكان إنشاؤه عام ١٩٧٤ وبضم الأقسام الآتية : الإلكترونيات. ميكانيكا السيارات. الخراطة، اللحام، الزراعة، التصوير، الطيران، التبريد والتكييف، الفلك، الكيمياء. وله فروعه المحلية واتصالاته العربية والعالمية. ومنشوراته ومجلته الشهرية (المجرة).

(٢٢) محمد أبو زهرة : المرجع السابق ص ٣٦٢ تقلا عن تاريخ بغداد ١٣ : ٣٥٢.

(٢٣) نفس المرجع ص ٤٥٦ نقلا عن تاريخ الحافظ ابن كثير رضي الله عنه.

(٢٤) مشكاة المصابيح للتبريزي بتحقيق الإلباني ١ : ٧٢ حديث رقم ٢٠٩ ط. المكتب الإسلامي ١٣٨٠هـ/١٩٦١م دمشق.

الفهرست

رقم الصفحة

كتب للمؤلف

أولاً ـ المجموعة الإسلامية :

١ ـ دروس من غزوة أحد ـ عالم الكتب، دار المعارف ـ القاهرة.
٢ ـ مواقف إسلامية ـ دار المعارف ـ القاهرة.
٣ ـ أحاديث رمضان ـ دار المعارف ـ القاهرة.
٤ ـ خطوات نحو القدس ـ دار المعارف ـ القاهرة.
٥ ـ الإسلام والعصر ـ دار المعارف ـ القاهرة.
٦ ـ الإسلام والمستقبل ـ دار المعارف ـ القاهرة.
٧ ـ في المحراب ـ دار الجمهورية ـ القاهرة.
٨ ـ الإسلام والتفرقة العنصرية :
أ) باللغات العربية والانجليزية والفرنسية ـ اليونسكو ـ باريس.
ب) باللغة العربية ـ دار المعارف ـ القاهرة.
جـ) باللغة العربية والانجليزية ـ رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ـ قطر.
د) باللغة الانجليزية ـ الناشرون المسلمون ـ الكويت.
هـ) باللغة الفارسية ـ اليونسكو ـ طهران.

و) باللغة الصربية الكرواتية ـ المجلس الإسلامي ـ سيراجيفو ـ يوغسلافيا.

٩ ــ مع الرسول والمجتمع ـ مؤسسة الصباح ـ الكويت.

١٠ ــ أيها الأبناء هذا دينكم ـ مؤسسة الصباح ـ الكويت.

١١ ــ آية وقصة ـ مؤسسة الصباح ـ الكويت.

١٢ ــ القرآن والتاريخ ـ دار البحوث العلمية ـ الكويت.

١٣ ــ دروس من سورة يوسف ـ ذات السلاسل ـ الكويت.

١٤ ــ كلمة طيبة ـ ذات السلاسل ـ الكويت.

١٥ ــ الإسلام والعروبة في عالم متغير ـ كتاب العربي (٢٢) ـ الكويت.

ثانياً : المجموعة الجغرافية العامة والإسلامية :

١٦ ــ قضية كينيا ـ وزارة الثقافة ـ القاهرة.

١٧ ــ دراسات في أفريقيا المعاصرة ـ دار القلم ـ القاهرة.

١٨ ــ جغرافية الأسلام في أفريقيا ـ معهد الدراسات الإسلامية ـ القاهرة.

١٩ ــ في أرض النيل ـ عالم الكتب ـ القاهرة.

٢٠ ــ دراسات في الجغرافيا البشرية للسودان ـ معهد الدراسات العربية ودار المعارف ـ القاهرة.

ثالثاً : دراسات عربية وإسلامية بالاشتراك :

٢١ ــ دراسات في المجتمع العربي ـ الانجلو المصرية ـ القاهرة.

٢٢ ــ المجتمع العربي ـ النهضة العربية ـ القاهرة.

٢٣ ــ الإسلام والمستقبل ـ اللجنة التحضيرية العليا لمؤتمر القمة الإسلامي الخامس بالكويت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م : اللجنة الاعلامية : (صدر باللغات العربية والانجليزية والفرنسية).

عن المؤلف

شغل المؤلف المناصب العلمية والتنفيذية الآتية :

١ ــ أستاذ الجغرافيا البشرية بجامعة القاهرة.

٢ ــ مدير جامعة الكويت.

٣ ــ نائب رئيس الوزراء للشؤون الدينية ووزير الأوقاف ووزير شؤون الأزهر بجمهورية مصر العربية.

٤ ــ المستشار بالديوان الأميري بالكويت.

٥ ــ عضو اللجنة العالمية لتاريخ الانسانية الثقافي والعلمي باليونسكو ـ باريس.

٦ ــ عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية «مؤسسة آل البيت» ـ عمان / الأردن.